

فكرات الفلسفة الغربية

مديرها الدكتور عثمان أمين

هيوم

محاورات في الدين الطبيعي

ترجمه و مقدمه له و طبع عليه

الدكتور محمد شوقي الشبلي

مدرس الفلسفة بمجلة القاهرة

مكتبة الطبع والنشر

مكتبة الفقه الإسلامي

١٦٩ شارع التحرير، القاهرة ١١٥١١١١

تصدير

للاستاذ الدكتور عثمان أمين

أستاذ الفلسفة بمجلة القاهرة

يسرني أن أقدم اليوم إلى قراء العربية الكتاب الرابع من سلسلة
فكرات الفلسفة الغربية ، الذي أعلنت عن اختياره للترجمة منذ
عشر سنوات . ويزيد من سروري أن الذي اضطلع بالترجمة هو
تلميذي وصديقي الدكتور محمد شوقي الشبلي : فقد عكف المترجم
الفاضل على دراسة مؤلف هذا الكتاب بضع سنين ، فأثمرت دراسة
بحثاً قيماً نال به درجة الماجستير من جامعة القاهرة . ولم تقطع
صلة الشبلي بهيوم بعد الحصول على الدرجة ، بل كان من دواعي
اغتيابي أن أراه ، إبان بئته بإديس ، يعود إلى حجة فلسفة
الختار ، متابهاً درسه واستقصاء أفكاره ، فأثمرت هذه الصلة
العلوية الواعة رسالة دكتوراه من جامعة إديس عن فلسفة هيوم
الأخلاقية والسياسية .

ولاشك عند من يدركون الروح الجامعية ويقدرونها حق قدرها ،
أن صنيح الشبلي هذا ، في عكوفه على فيلسوف بئته بتمقه وطبل

طرق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى
سايو ١٩٥٦

جاء يقينا تدعو إليه الحياة . ولعل هذا هو ما تشير إليه المحاوراة الأخيرة
من كتاب « المحاورات » ، إذ بين « فيلون » كيف أن تقده للدين
الطبيعي يفسح المجال للروح والإيمان .

وإن إذ آمل أن يقضى قراء الحرية في صيغة هذه « المحاورات »
فترة طيبة من التأمل التكري واللمحة الروحية ، أرجو أن يبيننا الله
على المنهج في تحقيق هدفنا من تعريف العالم العربي بفلسفة الحرية .

عبدالله أمير

السامرة في مايو ١٩٥٦

ومن الإنصاف ليوم أن نبه هنا أن الرجل لم يدر بغيره أبداً
أن يطلق الفلسفة ، ولا أن يجر الميتافيزيقا ، وإنما أراد أن يفتح لهذا
العلم طريقاً جديداً وأن يقدم له موضوعاً جديداً .

ومن هذا الوجه كان مؤرخو الفلسفة على حق ، حين رأوا في
الفيلسوف الاسكتلندي أبا روحيا للفيلسوف الألماني كانط ، صاحب
« المذهب النقدي » الكبير . والواقع أن « كانط » نفسه قد أشاد
بمقولة هيوم ، وأعترف بفضل عليه ، فقال في كتاب « التهديدات لكل
ميتافيزيقا مستقبلية » : « لقد أخذني رغبة من هيوم ، لجاء إيميسوم
وأيقظني من نعاسي القطي » .

ومهما يكن من اختلاف في النتائج التي انتهى إليها هذان الفيلسوفان
الألمانيان ، فمن الحق أن غابتهما من البحث واحدة ، وأن روح فلسفتيهما
واحدة : أما الغاية فهي المعرفة . الإيجابية ، وأما الروح فهي الروح
« النقدية » .

ولكن ما القول الآن فيما نسب إلى هيوم من تفكك مسرف هدام؟
إن رأينا في هذا مثل رأينا فيما نسب زورا إلى « كانط » من هدم
الميتافيزيقا وتقويض الدين . وليس هنا مجال الكلام لإنصاف فيلسوف
الألمان . وحسبنا أن قول إن تفكك « هيوم » في أمر « العلية »
من الناحية العقلية ، قد انتهى إلى تبرير الاعتقاد بها من الناحية العملية .
ويبدو كذلك أن تفكك هيوم في الأمور الدينية إنما هو تهديد لليقين

النظري فيه ، هو مثل طيب للإخلاص للفكرة ، والرغبة الصادقة في
المعرفة ، والسير الدائب نحو الإيقان .

أما هيوم مؤلف « المحاورات » فقد شغل في تاريخ الفلسفة مكاناً
مرموقاً ، واعتبر بحق رائداً من رواد التجديد الفلسفي في العصر
الحديث . حمل حملة قوية على المذاهب « القطعية » الجامدة في مختلف
صورها ، وشدد الكبر على النظريات الاعتقادية المتزمتة التي تبالغ
في تقدير ما للعقل الانساني من قيمة وتزعم أن في الامكان الوصول
إلى معرفة الحقيقة في يقين .

وكانت نتيجة هذه الحملة الفلسفية المبصرة أن وصل قائدها إلى
ضرب من « الارتياح » الجديدة ، والتفكك المعتدل ، أي إلى مذهب
هو وسط بين التفكك والاعتقاد ، كما رأى الدكتور الشفيق نفسه في كتابه
الذي يطبع الآن من هيوم وفلسفته . وخلاصة هذا المذهب الهوي أن
مهمة الفلسفة هي في صميمها مهمة « نقد » وتمحيص : تبدأ بتقيد العقل
الانسان والنهوض من أصول تصورات ومبادئه ، وتنتهي بتقيد العقائد
الأخلاقية والدينية ، فبين أنها ترضي في الانسان أعق حاجاته
ومطامحه .

مقدمة

في اليوم العاشر من مارس سنة ١٧٥١ كتب هيوم^(١) في خطاب له إلى أحد أخوانه وقد انتظف له فيه جانباً من محاوراته في الدين الطبيعي ، يمكنك أن تدرك من النموذج الذي عرضته عليك أنني أخذت من (كلياتش)^(٢) بطل الحوار^(٣) . و (كلياتش) هذا صورة الرواق في العصر القديم وباركلي في العصر الحديث ، فهو من ثم فيلسوف دجماطيقي^(٤) ويقابل شخصية (كلياتش) شخصية فيلسوف شك هو

(١) راجع حياة هيوم ، وخطبته في كتابها « فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد » الناشر مكتبة القاهرة الحديثة سنة ١٩٥٦

(٢) (كلياتش) ولد ١٧٣١ ق.م. أحد أعلام المدرسة الرواقية القديمة بن معرفة مدة طويلة على شرف المدرسة وفي عهده ضعف نفوذ الرواقية واشتهرت على لذهب الرواق حملات الأبيقوريين وأنصار الأكاديمية القديمة . ومن أشهر مؤلفاته قصيدة رائعة هي [أنثوسود إلى زيرس] . ويذكر عنه النصب لراي والتفتت [أنظر في هذا كتاب [الفلسفة الرواقية] للدكتور عثمان أمين - القاهرة سنة ١٩٤٥ من ٢٦٠ ٢٥]

(٣) Burton : Life & Correspondence of David Hume (٢) Vol. I P 58f

(٤) Dogmatic أي الذي يبرر الحكم ويمليه Sceptic الشك أي الذي يجرع من الحكم .

- ٤ -

(فيلون)^(١) تعاكي ميوله ميول (شيشرون) في كتابه عن طبيعة الآلهة^(٢) وتضامين ميول كتاب آخوين (كوتاني) . يد أن هذا الشك التقليدي أخذ لدى هيوم ألقاما يندى بهدى دراساته الخاصة في المعرفة وفي الطبيعة البشرية . فقد كان هيوم يشعر شعورا عميقا بانفتاح العقل فيما يقوم من استدلالات في مجال التجربة ولم يكن له أمل مافي الوصول إلى معرفة ثابتة عن أي شيء مالم يتبع منهج التفكير العلمي الدقيق ، ذلك المنهج الذي اتبعه من قبل في دراساته في الأخلاق والسياسة والتاريخ والاقتصاد فتوسم فيه خورا في مجال اللاهوت والدين : ولكن هيوم في مذهبه الفلاني عامة لم يستطع أن يعرف طبيعة النفس أو (الأنات) تمرقا واضحا فإ بالك طبيعة الله ومن هنا نلس قلقه الفكري على لسان (فيلون) يراجعه إيمانه الاعتقادي متشكلا في حديث (كلياتش) .

وتتطلب نظرية الاعتقاد في الفصول الخمس الأولى من المحاورات ،

(١) [فيلون] اللاتيني وهو غير [فيلون] الأنكندري . ولد حوالي ١٤٨ - ١٤٠ ق.م. من مؤسسي المدرسة الأكاديمية الرابعة ومن مدارس الشك عند اليونان اللدائي . كان من رايه الحادثة لا لتغير رأي سجين بل لبعض جميع الأولاد التي يدل بها الغير . وكان يحاك [تارنياس] الأكاديمي - اشهر بفصله وذاكرته الحاضرة وكانت من رايه أن أسدا لا يعلم أن يقع الفصيلة مالم تتوفر له دراسة للذئاب الفلسفية . وله تأليف في هذا المراسي جميع أصار الأكاديمية في ذلك العهد .

أطرس ٢٥ - ٢٦ من [الفلسفة الرواقية] . للدكتور عثمان أمين - القاهرة سنة ١٩٤٤

De Natura Deorum (٢)

ولعل هذا الجزء معاصر لمقال هيوم . والتاريخ الطبيعي للدين ، حيث ذكر أن نظرية الاعتقاد معتقد سليم .

وفي عام ١٧٧٦ وقبل وفاة هيوم بثلاثة أشهر كتب إلى ناشر كتبه (ستراهان) يمدحه عن المحاورات قائلا لقد عرضت فيها شكاً أعجاب على أمره حقا ونفلي في النهاية عن حجة بل اعترف بأنه كان وحسب يسرى عن نفسه بكتاباتته . ولكنه قبل أن يلزم بالصمت قدم موضوعات جديدة . ومن ثم يلوح أن (فيلون) لا يشير وحسب اعتراضات على الحجة المنالحة عن نظرية الاعتقاد بل ويشير كذلك مواقف جديدة ليست مأثورة عند الباحثين .

وبعد أن عاد هيوم إلى المحاورات هاله - على ما يظهر - هذه التأملات المخاطرة في مجالات الفلسفة الحادثة . وعلى ذلك فتند مراجعته لما أرتأى أن من المحتم عليه أن يؤكد لصديقه وناشر كتبه (ستراهان) أنه لا يرى إلى اتخاذ (فيلون) قن مؤلفه . ومع هذا نجد الاتجاه الشككي هو الغالب في الفصول الستة الأخيرة من الكتاب .

وأخيرا كان فيلارغم من تبلييل فكر هيوم في غضون الفترة التي قضاها في كتابة محاوراته فقد كان هدف دائما إلى روح الحوار واضحا نصب عينيه كتاب (شيشرون) « طبيعة الآلهة » فكان يماود هذا الكتاب بالدراسة بين حين وآخر .

Hendel : Studies in the philos. of D. Hume ch. xl p 305 (١)

T. B. Hill : Letters of D. Hume to William Strahan. (٢) Oxford 1888 P. 330

وقارىء المحاورات يلاحظ ما هناك من تعادل بين المتحاورين .
والواقع أن هذا الأسلوب الحوارى الذى أقره هيوم واختصه بتأنيده
بلغ غاية الروعة فى الأداء والصدق فى التعبير . ومع أنه جعل (كلياتش)
يعبر عن آرائه الخاصة فانه أدنى دور الشاك أداء بلغ من الجودة حداً
جعله يستعين بصديقه (إليوت) (١) على دعم الحجة الاعتقادية .
ومن ثم فلم يكن لغوا ما يقوله الشاك أو الدجماطيقى ، وإن الحقيقة
لتكشف فى ثنايا مناقشتها . ومن هنا كانت المحاورات - بحق -
مثلاً للتفكير الفلسفى العبرى على نمط الشك الأكاذيبى .

ويقدم هيوم للمحاور مقدمة آخر أن يتخذ لها صورة خطاب من
(بامفيلوس) إلى (هرميتوس) ولابد أن هذا الخطاب قد كتب بعد
الفرار من كتابة المحاورات (٢) . والخطاب يتصفاً فى وداعة ويسر بأنه
ينبئ لنا أن تنايع الحجج فى سياقها وألا تملق بما يقوله هذا أو ذاك
من أبطال الحوار . فلم يكن أحد من (فيلون) أو (كلياتش) يعبر
تعبيراً مطلقاً عن آراء هيوم ؛ يد أن فى وسعنا أن نستطلع فى
(بامفيلوس) شخص هيوم نفسه ، (بامفيلوس) الذى سجل هذه
المحاورات من ذكريات صباه ، والذى يشعر الآن ، بعد أن تم نضجه
وبلغ رشده - بقدرته على بسطها بسطاً أميناً كما سمحاً وتمكنه من فهم

(١) Burton : Vol. I pp. 331 - 332
(٢) Hendel : ch. xi P. 306

معناها وإدراك مغزاهما . يبدو من هذا أن (بامفيلوس) يمثل شخص
هيوم الذى أحرق قبل كتابة هذه المحاورات بوقت قصير غطوطاً
وكتبه قبل بلوغه العشرين وكان يحوى من صفة إلى أخرى تقدم
أفكاره فى هذا الموضوع . فقد استهل بحث قلق عن حجج لتأييد
الرأى الشائع ثم انتقلت الشكوك وتبدلت - عادت الظهور ثم تبدلت
من جديد وعادت إلى الظهور مرة أخرى . . . لقد كان هذا صراعاً دائماً
من خيال مكثود ضد الحرية وربما ضد العقل (١) .

إذن (بامفيلوس) هو هيوم يمرض على المسرح أحاديث صباه
التي أفضت به إلى اكتشافات خطيرة تخص المعرفة البشرية
وطبيعة الانسان . وبامفيلوس ، هذا هو الذى يسجل الحكم الأخير
بعد أن بدى بتعليقاته ذات المغزى بين الفينة والفينة فى سياق المناقشة
دون أن يشترك فى الحوار .

وفى عام ١٧٦٦ تمت المحاورات على نحو ما قرأها الآن . وربما
كتب هيوم حينذاك خطاباً الذى استلها به إذ تطالع فى هذا الخطاب
شيئاً جديداً (٢) . فهو يذكر لنا أن وجود الله أمر يقينى وأنه حقيقة
معروفة فى كل المصنوع وهى أساس آمال البشر ودعامة الأخلاق
والاجتماع فيحسن أن تأمل فيها فى كل لحظة من لحظات حياته . ذكر هيوم
كل هذا ليحجب الكتاب إلناً ولكنه لا يخفونه أن يحذرنا مما عسى أن

(١) Burton : Vol. I p. 332
(٢) أظن الخطاب س ١٧٦١ من هذا الكتاب

نلقاه فى فهمه من مشقة . ثمة مسائل عن طبيعة الله حافلة بالشك ولم
يصل العقل البشرى بعد إلى يقين عنها ولكنها موضوعات شائقة بحيث
لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من البحث الدائب فيها ولو أننا لا نخلص من
أدنى إيماناً بغير الشك والتناقض والافتقار إلى اليقين .

٨ ثمة دافعان يلهمان هيوم هذا الموقف عن طبيعة الله : أحدهما
الشفق الانسانى ، فلما نستطيع أن نتكبح أنفسنا عن البحث فى الله
وما عسى أن يكون ؛ ومع أننا لا نصل إلى نتائج شافية بهذا العدد ،
نستشعر ضرورة الاعتقاد بشيء فى هذا الموضوع . ولكننا نلتقى فى
أنفسنا بضرورة من نوع آخر : إن ما نتفق فيه أياً كان يلزم أن يكون
متوافقاً مع نفسه أو متوافقاً مع معتقداتنا الأخرى ، حتى يصير شيئاً
لاشك فيه . وإذا لم نجد وضماً ثانياً كذا نعلم أن (إله فينبى) لنا أن تترشح
عن ارتكاب وزير نحاسب عليه . وهذا بالضبط هو موقف الشاك
الصادق فى صراحة ضد الدجماطيقى .

هذان الطريقتان فى الاستجابة للواقع الدينى جعل هيوم من (فيلون)
(و(كلياتش) عثاين لما ، فالشخصيتان معاً كما ذكرنا تميزان عن فكره
الخاص ومما فى النهاية فيلسوفان قبل كل شيء . وإن هيوم لتوافق أن
يصلنا تلاحظ أن الشخصيتين تتسميان إليه حتى أنه فى الصفحات الأخيرة
من الكتاب (١) يتغلب عن تنكبه فى ثياب (بامفيلوس) ويتحدث عن
نفسه إلى القارىء حديثاً مباشراً . فليس ثمة ما يدعو إلى العجب إذا
نحن رأينا هيوم يقف مرة مع الدجماطيقى وأخرى مع الشاك يتخذ

[١] أظن هاشم المؤلف فى الفصل الثانى عمر من المحاورات .

من هذا بطلاً جديداً ومن ذاك بطلاً جديداً آخر ، فكلامهما يمثل طرقاً سليمة .
فى النظر إلى الأشياء . فعندما نشعر بأزمة فكرية نلج على المشاكل
المنطقية ونفرق فى الأمور الشككية ومع هذا فمن نواصل التفكير
والاعتقاد ونساق غالباً وراء توازن طبيعتنا . هذه المراحل التى يقطعها
هيوم نفسه فى تفكيره فينتقل من شك إلى اعتقاد تنطبع فى شخصيتى
(فيلون) و(كلياتش) . أما (دميان) فيقف إلى جانب (فيلون)
ولا يبدو دوره إثارة جلال الحوار إلى تناول ما يمرضه من اعتراضات
وشكوك .

القاهرة - إبريل ١٩٥٦
المترجم
محمد فتحي الشنيطى

خطاب

من (بامقيلوس) إلى (هرمبوس)

لقد لوحظ يا هرمبوس (هرمبوس) أن الفلاسفة القدامى وإن كانوا قد صاغوا معظم تعاليمهم في صيغة الحوار إلا أن العمل بهذا المنهج في التأليف قلّ اتباعه في المصور الأخيرة، وندر نجاحه بين أيدي من حاولوه. وإن الحجة المضبوطة المتسقة حقاً - وهذا ما نتفطره الآن من بائس الفلسفة - لتدفع الإنسان بالطبع إلى طريق منهجي مهذب يستطيع أن يشرح فيه شرحاً مباشراً ودون تمهيد، النقطة التي يهدف إليها، ومن ثم لا يلبث أن يستلزم الأدلة التي تقوم عليها ولا يكاد يبدو طبيعياً أن نسوق مذهباً في محاوره. فبينما يروم كاتب المحاوره بدوله عن الأسلوب المباشر في الإنشاء أن يشرح جوهر أكثر طلاقة وحرية لمؤلفه يجتنب مظهر المؤلف والقاري - فتراهم خليقاً أن يتدفع إلى مضايقة أسوأ في المباشرة مشرعاً بروح الصحة المؤتلفة فيلج الموضوعات المتشعبة ويحفظ التوازن اللامع بين المتحاورين، فكثيراً ما يستغفد وقتاً طويلاً جداً في التمهيدات والانتقالات بحيث يصعب أن يرى القاري نفسه قد وجد في نعم المحاوره مجيهاً عوضاً عن النظام والابحار والدقة التي نحس بها من أبحاثها.

ومع ذلك فهناك بعض موضوعات توافها كتابة المحاوره، وما برحت مفضلة فيها على المنهج المباشر البسيط في التأليف.

فإن أية نقطة بالغة الوضوح في نظرية بحيث أنها قلنا تفتح باب الجدل، ولكنها في عين الوقت بالغة الأهمية بحيث أنها لا يمكن في أغلب الأحيان أن تطوع في الذهن، تبدو مفتقرة إلى منج ما تناوينا قد تعدل فيه طرافة الطريقة ما في الموضوع من عسر، وقد تذكر التعاليم جوية المحاور، وقد يظهر تنوع الأضواء، مثلاً في الشخصيات والخصائص، غالباً من الإملال والتكرار.

ومن جهة أخرى إذا قيّض لمائة من مسائل الفلسفة بالغة في غموضها وعدم يقينها، حتى أن العقل البشري لا يستطيع أن يصل فيها إلى قرار محدد، إذا قيّض لهذه المسألة أن تعالج فإنها تبدو مؤدية بنا بالطبع إلى أسلوب الحوار والحديث. وقد يقع العقلاء من الناس في الاختلاف في المواطن التي لا يستطيعون الوصول فيها إلى إجابة قاطعة، يد أن المسامحة المتبادرة وأن لم تأت برأى قاطع لتبينا الدقة محبة. وإذا كان الموضوع غريباً شاقاً خف بنا الكتاب على نحو ما إلى حياة اجتماعية، ووجد أعظم وأصنى لذتين هما الدراسة والاجتماع.

ولحسن الطالع تتوفر هذه الملائمات جميعاً في موضوع الدين الطبيعي. فآية حقيقة غاية في الوضوح واليقين مثل وجود إله! وهي

التي نعرضها أجيال المصور وجهت أعظم المبكرات طاعة إلى إيجاد أدلة وحجج جديدة عليها؟ أية حقيقة أهم من هذه وهي أساس آمالنا جميعاً وأوتق دعامتنا للأخلاق وأرسخ صند المجتمع، والمبدأ الوحيد الذي لا يضب عن أنكارنا وتأملاتنا لحظة؟ ولكن أيّ مسائل فامضة تملق بطبيعة ذلك الموجود الإلهي، بصقائه ونواميسه وخطته في العناية؟ أيّ مسائل فامضة تراجها حين نتناول هذه الحقيقة الواضحة الهامة؟ ولقد تعرضت هذه المسائل دائماً لاختلافات الناس، ولم يصل العقل البشري إلى يقين عنها، ولكنها موضوعات شائقة لا نستطيع أن نكبح أنفسنا إزاءها عن البحث المتأنب فيها، ولو أننا لا نخلص من أدق أبحاثنا بغير الشك والتناقض وعدم اليقين.

وقد تبأت لي أخيراً الفرصة للملاحظة هذا وأنا أتهنى جانباً من فصل الضيف مع (كليانس) وأشهد عاداته مع (فيلون) و(ديمان) تلك المحادثات التي حدثت عنها من قبل حديثاً غير مستكمل. وقد ذكرت لي إذذاك أن الحديث قد أثار ظلالاً وأنه ينبغي لي أن أعود فأفصل استدلالهم تفصيلاً دقيقاً وأعرض تلك المذاهب المختلفة التي تقدموا بها عن موضوع دقيق كوضوح الدين الطبيعي. وقد راء التباين الملحوظ في شخصياتهم حين كنت تقابل بين اتجاه (كليانس) الفلسفي الدقيق، وبين شك (فيلون) اللاهي، أو هتارن موقف واحد منهما بما يظهر في موقف ديمن من الجرد وعدم المرونة، زاد هذا التباين في إثارة انتباهك. ولقد حدا بي شياهي أن أكون

مستمعا وحسب لمساخلتهم. وبفضل التلخّص الطبيعي في ذلك الفصل الباكر من الحياة انظمت في ذاكرتي السلسلة الكاملة المرتبطة للحجج انطباعاً عميقاً حتى لأمل إلا أغفل في روايتي جزءاً هاماً منها أخطأ فيه.

في طلابه عقلا راجعا ، وليس في وسع أحد أن يستوفي منه بسلام
الشم إلا ذهن غنى يسائر العلوم الأخرى .

(فيلون) : - أو "ترجيء تعليم أبنائك مبادئ الدين هذا
الإرجاء ! ليس ثمة خطر في إهمالهم أو نذم نبدأ نأما تلك الآراء
التي سمعوا عنها الزر اليسير خلال فترة تعليمهم .

(دميان) : - لقد أرجأت دراسة اللاهوت الطبيعي لاعتباره
وحسب عليا خاضعا للاستدلال والجدل البشري ، إن عنايتي القصوى
هي أن أبذر في نفوسهم التقوى الباكرة وإثني لأمل أيضا - بالتشكوة -
أن أطبع بعمق في نفوسهم النقطة بالترية الشريعة والتنشيف
الدائمين توقيرا مألوفاً لمبادئ الدين جميعا . وهم إذ يسرون في كل
علم آخر لا أفأ أوجه نظرم إلى عدم اليقين في كل جوه منه وإلى
الخلافاات الأبدية بين الناس وإلى غموض كل فلسفة والنتائج الغريبة
المثيرة للخطر التي استخلصها بعض أعظم العقائقة من مبادئ العقل
البشري وحده . وإذا قد رضت بذلك أذهانهم على التواضع والحياء
لم تعد تصاورى خفية ما في أن أكتشف لهم عن أعظم غوامض الدين
ولست أدرك أى خطر من غطرسة الفلسفة المحتلة التي قد تدفعهم
إلى نبد أو طرد العقائد والآراء .

(فيلون) : - إن عنايتك يذر التقوى الباكرة في نفوس أبنائك
لمى على اليقين معقولة جدا ولا تبدو ما يطلب في هذه السن التي لا تعرف
قداسة ولا دين . ولكن أم ما يعينني من خطتك في الترية هو منهجك

الفصل الأول

" بيد أنه لفت بالجامعة وكانت جالسة بمكة
(كليا شس) خلق (دميان) على (كليا شس) بعض
النساء للعبادة الطيبة التي خسر فيها تربيته
ولا يعبده إلا الذي لا يهن وبياه في جعب سدقاته . قال : "

(دميان) : - لقد كان والده (بافيلوس) صديقك الحميم والابن
تلميذك ويمكن أن يعتبر بحق ولدك المتيقن إذا كان علينا أن نحكم بما
يخضعه من عناء لتثقل إليه كل فرع مفيد في الأدب والعلم . وأنت
لا يمورك - فيما أعلم - الفتنة ولا الاجتهاد . وعلى ذلك سأقص
عليك قاعدة عامة لاحظتها فيما يخص أبنائي حتى يمكنني أن أعلم إلى أى
حد تتفق مع تجربتك . ويقوم المنهج الذي أتبعه في تربيتهم على حكمة
مأثورة عن أحد التداوى وهي : ينبغي لطلاب الفلسفة أن يبدأوا بتعلم
المخلاق ثم الأخلاق وبعدها الطبيعة وأخيرا طبيعة الآلهة ، ولما كان
هذا العلم في اللاهوت الطبيعي في رأيه أهمها وأشدّها إلهاما تتطلب

(1) Chrysippus apud Plut. de repag : Stoicorum. (ch. 9,
1085, a, b.) ، المؤلف :

باعتبار ما أحكامها في تعلق جد سامية جد محبة جد نائية عن الحياة
العامة والتجربة ؟

عندما يكون الصمام أجزاء قطعة الحجر أو حتى ذلك التأليف
بين الأجزاء الذي يجعلها مستدة ، أقول عندما تكون هذه الموضوعات
المألوفة مستعصية التفسير ومشكلة على ملائمتها بالغة التناقض والتناقض
فيأى استيقاظ نستطيع أن نصل إلى رأى قاطع في أصل العوامل أو نتبع
تاريخها من الأزل إلى الأبد .

" وبينما كان (فيلون) يقوم بهذه التعليلات كان قد
وسى أن ألح بسمه على عينا كل من (دميان)
(و (كليا شس) . وكانت بسمه (دميان)
منطوية على إضمار طليق بالنظريات السابقة ،
ولكن كان في وسعي أن أميز في فصيلات
(كليا شس) بسمه من المبدأ وكأنه قد أدرك
شيئا من الغزل أو خيلا متكلما في استدلال
(فيلون) . "

(كليا شس) : - وإذا ذن فأت (فيلون) ترى أن تفيد الإيمان الديني على
ذلك الفلسفي وتظن أنه لو أقصى اليقين أو الوضوح عن كل موضوع

٢ : ٢ : محاورات في الدين العيسى

في الانتفاع بمبادئ الفلسفة والعلم التي شاع عنها في جميع العصور - لما
تروحيه من كبرياء واعتزاز بالنفس - أنها هادئة لمبادئ الدين . ويمكننا
أن نلاحظ بحق أن السوقة الذين لم يدوا بالمعلم والبحث العميق شاعت
بيتهم زواجة تامة للفلسفة حين لاحظوا المساجلات التي لاحدها بين المتألمين ،
وهم لهذا السبب يريدون حودا في مسائل اللاهوت الكبرى التي لفتت
لهم : أما أولئك الذين أخذوا بتصيب من الدراسة والبحث ووجدوا
كثيرا من الشواهد في أحدث النظريات وأغربها فيظنون ألا شيء يحسن
على العقل البشري : وهم إذ يتقحمون في خيالات كل الأسوار يدنسون أهمق
حرمات المبدأ ولكنني أأمل أن يوافقني (كليا شس) على أننا بعد أن
نطرح الجمل - وهذا أنجح علاج - نبقى لدينا محاولة لتجنب هذه
الحرية المتبدلة .

>> "لتم مبادئ (دميان) وتتم ، ولنفس شعورا تاما بوهن العقل
البشري وعماه وضيق حدوده ، ولتأمل على ما يجب عدم يقينه وأخذاده
التي لا حاجة إليها حتى في أمور الحياة العامة والمصل ، ولنضع نصب
أعيننا أخطاء وعقداء حواسنا تنسها ، والعقبات الكأداء التي تصعب
المبادئ الأولى لكل المذاهب والتناقض التي تلصق بأفكار المادة ، بالغة
والمعلول ، بالامتداد ، بالمكان والزمان ، بالحركة ، وباختصار الكمية
بجميع أنواعها ، وهي موضوع العلم الوحيد الذي يمكنه أن يهتدى
بصرحة أي يقين أو وضوح : عندما نعرض هذه الموضوعات أتين عرض
كما عرضها بعض الفلاسفة وأسائذة اللاهوت جميعا على التعريب فنذا
الذي يستطيع أن يحتفظ بقطعة من الثقة في ملكة العقل هذه حتى يخلص

آخر من موضوعات البحث للاذ هذا الموضوع كله بهذه النظريات اللاهوتية وعاد منها بأعظم قوة وسلطان. وسلم عندما يفرط عقد الجماعة ما إذا كان شكك من الاطلاق والوثاقة بالحد الذي نزع. سري حينئذ أخرج من الباب أم من النافذة؟ وهل تشكك حقاً في أن لجسك جاذبية أو يمكن أن يرضى إذا سقط طبقاً للرأى الضعيف المستمد من حواسنا المعالطة ومن تجربتنا الأشد مغالطة. وأحسب يا (ديمان) أن هذا الاعتبار قد ينجح في تخفيف حقدنا على هذه الشبهة المماثلة من الشكك، فهم إذا كانوا جادين لن يعنوا العالم بشكوكهم ومكابراتهم ومساجلاتهم. وأما إذا كانوا لاهين وحسب، فقد يكونون مزاحاً أشراراً ولكن ليس في مقدورهم قط أن يكونوا خطرين سواء على الدولة أو على الفلسفة أو الدين.

[تم أرفف (تلياس) ١٩٤٥]

وفي الحق يا فيلون يبدو يتيقن أن الإنسان وإن يكن في احتياج مواجهة حجب تفكير عفيف في العديد من نقائص العقل وقائصه، قد ينفذ نذا تاملًا كل اعتقاد ورأى، فانه يستحيل عليه البقاء في هذا الشك المطبق، بل ويستحيل عليه أن يصرح به في سلوكه لضعف سماعات. فالموضوعات الخارجية تعضط عليه، والعواطف تلح عليه فيتبدد تأمله الفلسفي الحزين، بل وإن يكون في مقدور أقصى عصف في مواجهة الخاص أن يبقى وقتاً ما على مظهر الشك البائس. ثم لا يسيب يقرض على نفسه مثل هذا العصف؟ هذه نقطة يستحيل عليه استجابة تامة أن

يقنع نفسه بها اقتناعاً يراهم مبادئه الشكية. وعلى ذلك - قبل الجلة - ليس ثمة شيء أدى إلى السخر من مبادئ البيرونيين القديسي، إذا كانوا قد حاولوا حقاً - كما ادعى - أن يبسطوا ببساطة شاملة حين الشك الذي تصلوه من خطب مدارسهم الحماسية وتحم عليهم أن يحصروا أنفسهم في نطاقه.

في هذه النظرة يتبدى تشابه عظيم بين شجتي الرواقين^(١) والبيرونيين^(٢)، وإن كانوا خصوماً دائمين، وكانا يبدوا متكررة على هذه القاعدة المعالطة وهي أن ما يستطيع امرؤ أن يتجره أحياناً وفي بعض المواقف يستطيع أن يتجره دائماً وفي كل موقف. فعندما ترقى النفس بالتأملات الرواقية إلى حية رفيعة للفضيلة وتسلون في قوة بلون من ألوان الشرف أو الخير الجماعي فإن أقصى ألم وعناء يبدى لن يشعر بذلك الاحساس الرفيع بالواجب، وربما كان من الممكن بفعل هذا الاحساس أن نبسم ونتبجح في معصية العذاب، لأن كان الحال كذلك

- (١) أنما المدرسة الرواقية زينون (سنة ٣١٢ ق. م) والرواقيون ماديون على منحنى مرقطيس. ومثل مذهبه في الأخلاق أن الإنسان يضع الأساس التي يسير عليها في سلوكه على شئوه الموهبة الأساسية، والطبيعة هي التي غرزت فيه هذه الموهبة؛ ولعل الأول حب البقاء (لا الله كما ذهب الآيبوريون) التي يبدى إلى الفيزيقي ما يوافقه ويحفظ كيانه وما ينافيه ويلاشي. ارجع إلى «الفلسفة الرواقية» للدكتور عثمان أمين - القاهرة سنة ١٩٤٥ (الترجم).
- (٢) نسبة إلى بيرون (ولد ٣٦٠ ق. م) أي الشكك اليوناني وهو وإتباعه يشكرون معرفة الأشياء في حقيقتها ومن ثم يتوقفون عن إصدار أحكام مطلقة عنها. (الترجم).

وفي الحقيقة لكان الأخرى بالفيلسوف في مدرسته بل وفي مصدعه أن يدفع بنفسه إلى مثل هذه الحمية وأن يطبق في خياله أحد ألم وألجج سادت يمكن تصوره. ولكن كيف يطبق هذه الحمية نفسها؟ إن توتر نفسه لبقراض فلا يستطيع الاستجابة للذة، فالمشاكل تعده والكوارث تنقض عليه بقية. وينحدر الفيلسوف تدريجياً إلى أحد العوام.

(فيلون) - - إنني لاسلم بموازنتك بين الرواقين والشكك، ولكن يجعل بك في الوقت نفسه أن تلاحظ أن الذهن في الرواقية وإن يكن يستطيع أن يطبق أسس خواطر الفلسفة يد أنه حين ينحدر إلى ما هو أدنى لا يفتأ يحفظاً بشيء من موقفه السابق، وتظهر آثار تفكير الرواق في سلوكه في الحياة العامة وفي سياق أفعاله.

وقد زودتنا المدارس القديمة وعمل الاخص مدرسة زينون^(١) بتأجيل للفضيلة والصبر تبدو باعثة للدمعة في الأزمنة الحاضرة.

د عت كلها الحكمة والفلسفة الباطلة يسد أن في وسعها يسير لاذ أن ترقيا - لحظة - الألم أو الضيق وتوقظا الرجا والراحم أو تدجبا الصدر التامى بالصبر العنيد كأنه الصاب الصلب^(٢)

- (١) زينون الرواق (ولد سنة ٣٤٢ ق. م) مدينة كيبوم - غرضي للمانيا ودرس فلسفة السكيتين والبيرونيين بوق تأمره بتأجيل سقراط - إنشاء مدرسة في رواق حوالي ٣٠٠ ق. م (الترجم).

(٢) الفردوس المفقود الشاعر ملقن - Paradise Lost 11 (المؤلف).

والأمر كذلك إذا ألف المرء اعتبارات شكية منصبة على عدم يقين العقل وضيق حدوده فإن ينسأها نسبياً تماماً عندما يتجه بشكوه إلى موضوعات أخرى وليكننا سنجده في جميع مبادئه الفلسفية واستدلالة - ولا أقول في سلوكه العام - مختلفاً عن أولئك الذين لم يصوغوا ألبتة آراء في هذه الناحية، أو الذين استمذبوا مشاعر أنصب عن العقل البشري.

وأياً كان المدى الذي يدفع إليه أي شخص مبادئه التأملية في الشك فاني أرى أنه يشتم عليه أن يفعل ويشئ ويتحدث مثلاً يفعل غيره من الناس وليس ملزماً أن يدل بسبب لسلوكه هذا اللهم إلا الضرورة المطلقة التي يمتنع لها في قيامه بهذه الأعمال، وإذا حدث أن اطلق بتأملاته إلى أبعد مما تقرره عليه هذه الضرورة وتغلب في موضوعات طوعية أو موضوعات أخلاقية لاستجابة لذة خاصة ورضى خاص يجمدهما في انتاج هذا النيج. زد على هذا أنه يرى أن كل فرد مقسور - حتى في الحياة العامة - على أن يصيب خطأ أقل أو زاد من الفلسفة وأنا في طفولتنا الباكرة تقدم باطراد في صياغة مبادئ أهم للسلوك والاستدلال بحيث أننا نجعل مبادئنا على الدوام أهم وأحق بالمفهوم كلما اتسع مانكسبه بالتجربة وقوى خطانا من العقل، وإن ما ندعوه فلسفة لمو عملية منظمة متسقة من النوع نفسه. إن التفلسف في مثل هذه الموضوعات لا يختلف في الجوهر عن الاستدلال المنصب على الحياة العامة، ولنا أن تتوقع لفلسفتنا رسوخاً أعظم إن لم تتوقع خطأ أعظم

من الحقيقة كلما كان منهجنا في البحث أدق وأكثر تشككاً.

ولكن عند ما نتعلم أن البشر بشرية وصفات الأجسام المحيطة بنا ، لن انتقلنا بتأملنا إلى الأزل والأبد قبل وبعد الوضع الخلقى للأشياء ، إلى خلق العالم وتكوينه إلى وجود الأرواح وصفاتها ، إلى قوى روح كليه وعملاتها ، روح كلية وجودها لا يده له ولا نهاية ، شاملة القوة عامة بكل شيء ثابتة لا متناهية لا مدركة . يلزم أن نأى بعيداً عن أبسط ميل للشك لا نلزم به ومن ثم فهو بعيد عن متناول ملكاتنا . وما دما نقصر تأملاتنا على التجارة أو الأخلاق أو السياسة أو النقد فنحن نستعين - كل لحظة - بالدوق السليم والتجربة الذين يشدان أزر تأنها الفلسفية ويجحون - نحواً جزئياً على الأقل - الرية التي قد تخالفتنا في كل استدلال بالغ في دقة ورقته . ولكننا نقف هذه الميزة في الاستدلالات اللاهوتية ، فينبأ نشغل فيها بموضوعات يجب أن نعرضها بعدها في حين الوقت أوسع من أن نحيط بها وأنشئ قبل غيرها بأن يألفها إدراكنا كل الإلف . فنحن فيها أشبه بأجانب في بلد غريب يرامى لهم كل شيء مريباً وهم - كل لحظة - في خطر من أن يبتدوا على قوانين وعادات شعب يعيشون بينه ويتحدثون معه . ولتسألني ندرى إلى أي حد ينبغي لنا أن نثق بمنهجنا المبتدلة في الاستدلال - في مثل هذا الموضوع - ما دما نحن في الحياة العامة وفي ذلك المجال الضيق المواتم لها بوجه خاص ، لا نستطيع أن نقصرها ونقادي في استخدامها اقتياداً تاماً بهرب من الحرية أو الضرورة .

ويذهب الشكك جميعاً أن العقل - إذا اعتبر اعتباراً مجرداً - يولد من الحجة القابلة ما ينافقه ، وأتأنا لاستطاع البينة أن تحتفظ اقتناع أو استيقان ما في موضوع ما لم تكن الاستدلالات الشككية بالغة في دقتها وورقتها حتى تصبح أن تعدل الحجة المستمدة من الحواس والتجربة وهي حجة أصلب عوداً وأقرب إلى الطبيعة . ولكن من اجل أنه حيناً تفقد حججنا هذه الميزة وتبعد عن الحياة العامة بتبادل معها أصنى شك ويكون في وسعهم أن يواجهها ويبدلها . ولن يكون لواحد منهما وزن أكبر من الآخر ، ونمتدح يجب على الذهن أن يستقر مطلقاً بينهما وهذا التعليق أو التوازن هو بينه ظفر الشك .

× (كلياتي) : ولكنني يا (فيلون) لاحظت فيما اتصل بك وجميع الشكك التاملين أن نظريتك وعملك يلمان من التشكك في أخنى القفل ما تلبثانه في سلوك الحياة العامة . لحينما أسفر الدليل عنك تبهمه مضياً عن شكك الزهوم واستطيع أن ألاحظ أيضاً أن بعض أفراد شعبك بلغوا من التزكك مبلغ أولئك الذين تقدموا بتعاليم أعظم عن اليقين والاستيقان ، وفي الحق أليس يدعو إلى الشكيرة أمرؤ أذى أطراح قصير نونون^(١) لظاهرة قوس قزح الرائعة لائى . إلا لأن هذا التصير يحلل أشعة الضوء تحليلاً دقيقاً ، وهو موضوع - لسرك - بالغ في

(١) نونون (١٦٤٢ - ١٧٧٧) عالم فيزيائي في الطبيعة والزراعة والفلك شفه اكتشفه هوائين الجاذبية وحليل الضوء ، (الترجم)

دقة على القيم البشرية ١٩ وماذا أنت قائل في شخص لم يكن لديه شيء جزئ يطق عليه حجة (كوبريكوس)^(٢) و(جاليليو)^(٣) عن حركة الأرض فامتنع عن التصديق بها استناداً إلى ذلك المبدأ العام وهو أن هذه الموضوعات أشرف وأبعد من أن يفسرها عقل البشر الضيق المغالط ؟

وهناك كذلك - كما لاحظت جيداً - نوع من الشك القفل المجهل يحسم السوقة بوجه عام ينظرون نظرة تعرض إلى كل ما لا يفهمونه في يسر وينفذون كل مبدأ يتطلب استدلالاً باضحة للتدليل عليه وأقراره . هذا الضرب للشك مهلك للبرعة لا للدين إذ ترى أولئك الذين صرحوا به أعظم تصريح كثيراً ما يتخصون بتصديقيهم لاحقاق الاعتقاد بالله والدين الطبيعي وحسب بل وأسخط العقائد التي زينتها لهم الخرافة التقليدية . فهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً بالساحرات وإن لم يعتقدوا أو يؤيدوا أبسط قضية (لاقليدس) . ولكن الشكك المتفلسفين الخلف يعقون في تناقض على عكس هذا . فهم يذعنون بمباحثهم إلى أخنى جوارب العلم ويسايرهم تصديقيهم في كل خطوة متناسياً مع الدليل الذي

يلتقون به ، بل انهم يمتدرون إلى التسليم بأن أخنى الموضوعات وأتأما هي تلك التي شرحتها الفلسفة غير شرح . فالضوء قد حلل في الحقيقة وكشف النظام الحقيقي للجموعة الشمسية وتقرر ، ولكن تصفية الأبدان بالطعام لا تزال شيئاً غامضاً لا تفسر له ، والتمام أجرام المادة ما برح بعيداً عن القيم . ومن ثم فقولاء الشكك يمتدرون في كل مسألة من المسائل إلى النظر في كل بيئة جزئية على حدة ويعملون تصديقيهم زهوناً بدرجة الوحوش الدقيقة التي تترامى لهم . هذا هو عملهم في كل علم طبيعي أو رياضي أو خلقي أو سياسي ، وانني لا تسامح لم لا يكون عملهم كذلك في العلم اللاهوتي والدين ؟ لم يجب أن تسمى فيه نتائج من هذا القبيل استناداً إلى الافتراض العام بأفتار العقل البشري ، أقول تسمى فيه هذه النتائج دون أية مناقشة خاصة للدليل ؟ أليس مثل هذا المسلك غير المتعادل دليلاً بيناً على التعرض والهو ؟

أنت تقول إن حواسنا مغالطة ونهتنا خاطئة وأفكارنا حتى عن أكثر الموضوعات آفة ، من امتداد وديمومة وحركة مفهومة باللبس والتناقض ، وأنت تتحدث أن أحل هذه الاشكالات أو أفر بالتأفر الذي تمسككشفه بينها . وليست لي القدرة على مثل هذه المهمة العظيمة وليس لدى فراغ لها ، إنني لأعتبرها أمراً ثانوياً فإن مملك الخاص في كل ملابسة يدحض مبادئك ويكشف اعتيادك الراسخ على كل القواعد المسلم بها في العلم والأخلاق والفظة والسلوك .

(١) كوبريكوس (١٤٣٧ - ١٥٤٣) فلكي بولوني أثبت أن الكواكب تدور دورين أحداً حول نفسها والأخرى حول الشمس ، فلبت نظريته نظام الكون رأساً على عقب واعتبرها الإلها مائية لعالم الدين . (الترجم)
(٢) جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) رياضي وفلكي إيطالي وله في فيزياء وجبر المؤسس الفيني قلم التجريبي . له اكتشافات عديدة في الطبيعة والفلك . (الترجم)

ولن أسلم اليه رأى بالغ في جفوته مثل رأى كاتب مذهب (١) حين يقول أن الشك ليسوا شعبة من الفلاسفة هم وحسب عصبه من الكذابين . ومما يكن من شيء فقد أقر - وأمل ألا يكون في ذلك اسامة - أنهم شعبة هازلين أو موهجين ، ولكن رأى أنني عندما أحس من نفسي ميلا إلى الطرب والهوى فساوثر يقينا أن تكون تسليتي أقل عناء وحشة . إن الملهة أو الرواية أو على الأكثر التاريخ ليتدو أقرب إلى طبيعة الترويح من هذه الدقائق والتجريدات الميتافيزيقية .

وإن الشاك ليعمل عينا على التفرقة بين العلم والحياة العامة أو بين علم وآخر . فالخروج المستخدمة فيها جميعا ، إذا كانت صحيحة ، فهي من طبيعة متشابهة ، وهي في القوة والوضوح سواء ، فإذا كان ثمة خلاف بينها نجد أن التقوى يحتاج اختيارا تاما إلى جانب اللاهوت أو الدين

(١) L' Art de Penser [المؤلف]

Antoine Arnauld : La Logique ou L' art de Penser.

أنتوان أوليول : المنطق وفن التفكير . وقد نشر سنة ١٦٦٢ والفترة التي يشير إليها هيوم هناك في المجلد الأول ص ٢٦ من طبعة سنة ١٨٤٢ ، وقد جاء فيها : « إن أحدا لم يشك قط في وجود أرض وحش وفر ، وفي أن السكك أكبر من جزئه . وإذا كان في وصف المرء أن يلفظ ببناء يشكك في ذلك في استطاعة الإنسان أن يكذب ولكن ليس في استطاعته أن يشكك في كذبه . ومن ثم نجد أن البروتية ليست شعبة نوم ، فممنون بما يخلووت ، بل من شعبة كلفان » .

أظهر ص ١٢٧ طبعة كيمب Kemp Smith له ورأته - لتدو سنة ١٩٤٧ [الترجمة]

الطبيعي . فكثير من مبادئ الميكانيكا مؤسسة على استدلال بالغ في غرضه ، ومع ذلك فليس ثمة شخص يدعي المشاركة في العلم ، بل وليس ثمة شاك متأمل ، لا واحد من هذين يدعي أنه يلو أقل شك بصددها . فالذهب الكوبرنيكي يتبدل على أكثر المقارقات اجتماعا للدمعة وأعظمها تعارضا مع تصوراتنا الشخصية والمظاهر وجوانبنا نفسها ، ومع ذلك فإن الرهبان أنفسهم مضطرون إلى الاقلاع عن معارضتها . وهل يقع (فيلون) وله مثل تلك العبقرية الحرة - في مثل تلك الشكوك السوفية الشائعة ، التي تنصل بالفرض الديني المؤسّر على أبسط الحجج وأجلاها ، والذي يجد إلى ذهن الانسان مدخلا جديسيور ويصادف منه قبولا ، إلا أن تموقعه عقبات مفتعلة ؟

[وأردف بمل وهو يظنك إلى . ديان]

وهنا نلاحظ ملاحظة لطيفة غريبة في تاريخ العلوم . فبعد اتحاد الفلاسفة بالدين الضمى ضد أول توطن للمسيحية لم يكن شيء آلف بين معلى الدين من الخطب الحماسية ضد العقل والحواس وضد كل مبدأ مستمد من التثقيب والحيث البشري حسب . وقد تبني الآباء كل موضوعات الأكاديميات القديمة ، ومن ثم دأبت إلى تصور عديدة في كل مدرسة وفي كل منبر في كافة أرجاء العالم المسيحي . ولقد احتضن المصلحون مبادئ الاستدلال عنها أو بالأحرى مبادئ الخطأ ، وأن كل ضروب الآباء على روعة الإيمان قد شابهوا على التأكد بعض ضروب

القدح النقيضة في العقل الطبيعي . وثمة أسقف (١) مشهور من الجمع الروماني ، وهو رجل على أعظم قسط من سعة الثقافة وهو الذي كتب ورواها على المسيحية ، قد ألب كذلك رسالة تنطوي على مكابرات أجرا البروتية بجمعا وأشدّها حدادا . ويسدو أن لوك (٢) كان أول مسيحي غاطر بصراحة بزعم أن الإيمان ليس إلا ضربا من العقل وأن الدين لا يبدو أن يكون فرعا من الفلسفة وأن ثمة سلسلة من الحجج مائلة لتلك السلسلة التي توطن أي حقيقة في الأخلاق أو السياسة أو الفيزيكا تستخدم دائما في استكشاف مبادئ اللاهوت الطبيعي ، منه والموحي به . وإن عيب (بيل) (٣) وغيره من الإحراج بالذك الفلاسفة ضد الآباء وأوائل المصلحين زاد في انتشار إحساس السيد لوك البصير . وقد اعترف به الآن على نحو ما كل أدعياء الاستدلال والفلسفة ، ألا وهو

(١) Mons Huet [المؤلف]

بشعرهوم إلى المؤرخين بيتر دانييل هويت ١٦٣٠-١٧٢١ Peter Daniel Huet والإشارة هنا إلى كتابه [رسالة في شغل العقل البشري] وقد نشر منه موط صاحبه سنة ١٧٢٣ [الترجمة]

(٢) جون لوك ١٦٣٢-١٧٠٤ . فيلسوف إنجليزي من أعلام المنهج التجريبي . كان أول من حاول وضع منهج المعرفة في صورة العلم المنطوق ، وذلك في كتابه [مدال في العقل البشري] وبعد هذا الكتاب بقي أول بحث علمي منظم يتناول بالتحقيق والدرس أصل المعرفة وما هيها وجدودها ودرجة اليقين فيها . وقد أطر لوك جانباً نظرية التفسير العقلية مولا على التجربة باعتبارها المنهج الأول لمعرفة . (الترجمة)

١٦٤٧-١٧٠٦ كاتب مفكر فرنسي . صاحب القاموس الفلسفي وحنا

أن الملحد والشاك مترادفان تقريبا . ولما كان يقينا أن ليس ثمة إنسان يجد حين يصرح بالمبدأ الأخير ، فاني لأرجو ميتجا أن يكون هناك عدد قليل يأخذ في جد بالمبدأ الأول .

(فيلون) : - ألا تذكر قولة (لورد يكون) الزائفة في هذا البحث ؟

(كياش) : هي أن القليل من الفلسفة يجعل الانسان ملحداً ، والكثير منها يشوب به إلى الدين .

(فيلون) : - هذه أيضا ملاحظة بصرية جدا ولكن ما يلفت نظري الآن هو فكرة أخرى لاحظ فيها هذا الفيلسوف العظيم - بعد أن نوه باللاحق (داوود) الذي أسر القول بأن ليس ثمة إله - أن للملحد في أماننا قسما مزدوجا من الخافة : إذ أنهم لا يقتصرون على الأسرار في أفتدبهم بأن ليس هناك إله بل تنويع شفاهم بهذا الإلحاد أيضا . فهم من ثم موصوفون بزيد من الطيش والتطير ، وعدى أن مثل هؤلاء الناس - وإن كانوا على قدر عظيم من الجد - لا ينطعمون أن يكونوا على جانب عظيم من الرمية .

ولكنك وإن جاز لك أن تسلكني في حداد هذه العائفة من الحق ، لا أستطيع أن أمتنع نفسي من ذكر ملاحظة سمحت لي من تاريخ الفكر الديني والادبي الذي أمتنتا به . يبدو لي أن هناك علامة قوية من فن الكتابة في أطوار هذا التاريخ . ففي غضون الصور الجالحة - كذلك الصور التي أعقبت انحلال المدارس القديمة - أدرك الكهان أن

الإلحاد والزندقة من أى نوع كانت يمكن أن تنجم غلب عن التفصيص الموهوب في الآراء المسلم بها وعن اعتقاد بأن العقل البشرى نه لكل شيء . ثم كان للتعليم إذ ذاك نفوذ القوى على أذهان الناس ، وكان يكاد يمدن في القوة تلك الإيمانات الآتية من الحواس والقيم العام والتي يلام على أعظم الشكك تصميم أن يسلم بأنه مسير بها . أما الآن - وقد تناقص نفوذ التعليم إلى حد بعيد وتعلم الناس من انفساح سبل التجارة في العالم أن يقارنوا المبادئ العلمية في أهم وعصور مختلفة - فقد بدأ أساتذة اللاهوت عندنا مذهبيهم في الفلسفة بأسره ، وأضحوا يتحدثون بلغة الرواقين والأفلاطونيين والمثاليين بلغة البروتستانت والأكاديميين . ولئن زعمنا الثقة من العقل البشرى كما بقي لدينا الآن أى مبدأ آخر يدينا إلى الدين . وعلى ذلك فالشكك في عصر والدجاغيتيون في عصر آخر - أيا كان مقصد هؤلاء السادة الأفاضل - إذا وهبناهم روبة يشرفون منها على الجنس البشرى لرأيانهم على ثقة من اتخاذها مبادئ المفضل وعقيدتهم الراسخة .

(كليات) : - انه لمن الطبيعي جدا للناس أن يمتنعوا هذه المبادئ التي يرون أنهم يستطيعون أن يدوروا بها خبر ذباد عن مذهبهم ، ولست في حاجة إلى الالتجاء إلى الكهانة لفسر هذه المحاولة المعقولة جدا . ومن الأكيد أن ليس ثمة ما يبدنا بافراض أقوى - ألا وهو أن أية مجموعة من المبادئ حقة وينبغي احتضانها - من أن نلاحظ أنها تنجبه إلى تأييد الدين الحقيقي وتعين على هزيمة مكابرات الملحدين والأحرار والمفسرين الأحرار من جميع الحل .

الفصل الثاني

(ديمان) : - لا بد لي من القول أولاً شيء أبسط للحق من العنود الذي عرضت فيه هذه الحجة . ففي وسع المرء أن يظن من تيرة حديثك أنك كنت تعلم بوجود الله - على تقيض مكابرات الملحدين والزنادقة - واضطرت بذلك أن تصير بطلا لهذا المبدأ الأسامي لكل دين ، ولكن هذا - فيما أرجو - ليس من موضوعنا في شيء . إنني لاذهب إلى القول بأن ليس ثمة إنسان أو على الأقل ليس ثمة إنسان سليم الذوق - قد شك شكاً جاداً في حقيقة بديهية بالغة اليقين «فالمسألة ليست مختص بوجود الله بل بطبيعته ، وإنني لاأرر أن هذه الطبيعة كانت دائماً مستقلة على الفهم ، بجهولة لنا ، لتناقص في فهمنا البشري» إن جوهر ذلك اللهن السامي وصفاته وطريقته وجوده وطبيعته بقائه هذه وكل جرئية تختص بهذا الموجود الإلهي عامنة على الناس وكما كنا متناولات متناهية متعينة عبياء فينبغي لنا أن نتواضع في «صنعة الرفعة» ، وإذا نشعر بقاقتنا نفق في صمت كالآلة الامتامية التي لم ترها حين من قبل ولم تسمع بها أذن ولم تدخل قلب بشر فيفقهها . فهي مغلقة في سحابة كثيفة دون طلع البشر ، وأنه لمن الدنس أن نحاول اختراق هذه المهبئات المقدسة . ويحيى التهور في التجسس على طبيعته ووجوده ونواميسه وصفاته بعد الإلحاد في إنكار وجوده» . ولكن لا يسبق إلى

ذلك أن نقول هنا قد فاقك فلسفي ، سأدعم رأي - إذا كانت يعوزه الدعم - بسند عظيم جدا . وفي وسعي أن أستشهد بأساتذة اللاهوت منذ تأسيس المسيحية على التقريب - أولئك الذين مالوا هذا الموضوع أو أى موضوع لاهوتي آخر - ولكنني سأكتفي الآن بموضوع مشهور إن في التقوى أو في الفلسفة - وقد عير عن ذلك الأب (مالبرانش) (١) - على ما أذكر - حين يقول : ينبغي للمرء ألا ينال فيدعواؤه روحاً - لكي يصير تغييراً إيجابياً عما هو عليه - ولكن بين كذلك أنه ليس مادة - . إنه لوجود كامل كاللا امتاميا وفي هذا لا نستطيع أن نتكلم . ولكن على نفس النحو الذي لا ينبغي لنا منه أن نتخيل بل وأن نقترنه جسمياً مكتسباً يدن بشري كاذم جماعة المشبهة بحجة أن هذا الشكل أكل شكل ، كذلك لا ينبغي لنا أن نتخيل لروح الله أفكاراً أو أن يبين روحاً ثمة شها بحجة أننا لا نعرف شيئاً أكل من الذهن البشري . ينبغي لنا بالآخرى أن نعتقد أنه كما يشمل كالات المادة دون أن يكون مادياً فهو يشمل كذلك كالات أذهان المخلوقات دون أن يكون ذهنياً - على النحو الذي تصور عليه

الذهن - وأن اسمه الحقيقي هو الكائن أو بعبارة أخرى وجود دون تحديد ، الوجود كله الوجود الامتامي والكل . (١) (ديمان) : بعد هذا السند العظيم الذي تقدمت به يا (فيلون) وبعد آلاف مثله يمكنك أن تقمدي يدولي من المضحك أن أضرب إليه إحساساً أو أبدأي رضى عن نظرتك . ولكن الثابت أنه حيثما نال أناس عقلاء هذه الموضوعات لم تكن المسألة آتية هي مسألة وجود الله بل طبيعته . والخقيقة الأولى - كما نلاحظ جيداً - بديهية لا نزاع فيها . ليس ثمة وجود لشيء دون علة ، والعلة الأصلية لهذا العالم - أيا كانت - تدعوها (لما وتعلمه في تقوى كل ضرب من ضروب الكمال . وإن من يرتاب في هذه الحقيقة ليستحق كل عقاب يمكن أن يرمى به الفلاسفة . أعني أعظم سخر وزرابة واستعجاب . ولكن لما كان كل حال كالاتاً نسبياً بالمرء فلا ينبغي لنا البتة أن نخيل أننا نعطى صفات هذا الموجود الإلهي أو أن نقترض بين كالاته وكالات مخلوق بشري مماثلة أو تشابه . إن الحكمة والتفكير والتدبير والمعرفة ، هذه نفسها بحق إله لأن هذه الكالات مبهمة بين الناس وليس لدينا لغة أخرى أو تصورات أخرى نستطيع أن نعبر بها عن عقبتنا له . ولكن سداً أن نلن أن أفكارنا تطابق كالاته - على أية حال - أو أن ثمة تشابه بين كليات الناس . أنه ليسمو سمواً لا متناهياً عن نظرتنا المحدودة وفهمنا المحدود ، وهو أقرب أن يكون موضوعاً لتبدينا في المبد منه موضوعاً لمساجلتنا في المدارس .

(١) مالبرانش - [١٦٣٨ - ١٧١٥] - فيلسوف فرنسي من خدم نظرية الانسكار الفطرية لأنه يرى كل شيء قائماً في الله ويفسر كل شيء في الوجود من طريق الكشف . ويدعو إلى التناول وليم الأخلاق على أساس فكرة النظام . مؤلف كتاب [بحث عن الحقيقة] . (المترجم) .

(كياش) : - الحق ألا حاجة لنا إلى الاستعانة بذلك النك
للكتاب الذي نبهنا أشد البهش لنصل إلى هذا القرار . إن أمكننا
لا تدور تجربتنا ، وليس لدينا أية تجربة من الصفات والعمليات الالهية .
ولا حاجة إلى إتمام هذا القياس . يمكنك أن تسوق الاستدلال
بنفسك ، وأنه ليلزم أن يملك أن يفسد أن يمتنع في نتيجة واحدة
الاستدلال الصحيح والتفوي السببية وتقران طبيعة الوجود الأسمى
للمعاصرة المشوقة المستقلة على القيم .

[ثم قد موجه حديثه إلى (ديان)]

ولكن لا نستنفد وقتنا طويلا في الف حول الموضوع أو في
الاجابة على خطاب (فلون) الخاصة التقنية ، سأفسر في إيجاز كيف
أنشور هذا الموضوع أنظر حول العالم ، تأمله برعته وتأمل كل جزء فيه ،
تجد ليس إلا آلة عظيمة مقسمة إلى عدد لا متناه من آلات أصغر
تتج بدورها تقنيات أخرى إلى درجة تجعل ما تستطيع الحواس
والمسلكات البشرية أن تفهم وتفهمه . وهذه الآلات المتنوعة جميعا -
بل وأدق أجزائها أيضا - منظمة فيما بينها بدقة تفنن انبعاث من قبض
له تأسبا . أن التوافق العجيب بين الوسائل والمايات في جوانب الطبيعة
جميعا يشبه في دقة ثمرات الابتداع والتدبير والفكر والحكمة والذكاء
البشرية ، وإن كان يفوقها . وعلى ذلك ما دامت المطولات تتشابه فيما
بينها فمن يتأدى - طبقا لقواعد التمثيل جميعا - إلى الاستدلال على
أن الملل أيضا تتشابه وأن صانعه النتيجة يشبه إلى حد ما ذهن البشر ،
وإن كان موددا بملكات أوسع تتناسب مع جلال العمل الذي أنجزه .

هذه الحجة التبعية - وهذه الحجة وحدها - نبرهن في عين الوقت
على وجود إله وعلى مشابهته لذن وذكاه بشريين .

(ديان) : - قد لعلني سر في أن أذكر لك أني منذ البداية لم
يسحق الرضى من نتيجتك الخاصة بمشابهة الله للأسمى ، وما برحت
لا أستطيع أن أرضى من الماير التي تحاول بها تقررهما . ماذا ؟ ليس
تمة برهان على وجود إله ؟ وليس تمة حجج مجردة ، ليس تمة أدلة قلبية ؟
أهذه الحجج التي أح الفلاسفة عليها كثير أكلها مناقلة وكها سفسطة إذن ،
وهل تستطيع أن تصل في هذا الموضوع إلى أبعد من التجربة والرجحان ؟
لن نقول إن في هذا حياة لهد الله ، ولكنك - على التأكيد - تفيد
المعدين بهذه الهامة المصطنعة فائدة لم يكن في وسعهم البتة الحصول
عليها بفعل الحجة والاستدلال بحسب .

(فلون) : - ليس أهم ما يري في هذا الموضوع أن (كياش)
قد رد الحجج الدينية إلى التجربة ، بقدر ما ارتاب في أنها لا تبدو أيضا
أكثر هذا النوع لدان يقينا وثباتا . لقد لاحظنا آلاف آلاف المرات
أن قطعة الحجر تسقط والنار تحرق وأن الأرض صلبة ، وعند ما يمثل أى
مثل جديد من هذا القبيل نسوق - دون تردد - الاستدلال
المألوف ، والتشابه المضبوط بين الحالات يدنا باستنتاج كامل من حادثة
مماثلة فلا نرغب قط في شاهد أقوى ولا نبعث عنه . ولكن حينما
اتحدث أقل ابتعاد من تشابه الحالات تألم تقصص الفسادة انقضاء
سيرا ورعا انتهت بها إلى تمثيل ضعيف جدا مسلم بترصنه للسطا وعدم
اليقين . فمن بعد تجربة دورة الدم في المحلقات البشرية لا يبالغنا شك

في أنها تأخذ مجراها في (تيتوس) و (ماقيوس) ، ولكن من دورته
في الصفات والعلم لا يبدو الأمر افتراض كوننا تأخذ مجراها في
الأماسي والمحيوانات الأخرى - وإن يكن فرضا قويا مستمدا من
التجربة . والاستدلال القليل أضعف حين نستدل على دورة العصاره
التيانية في الحشرات من تجربتنا بأن الدم يدور في الحيوانات وقد
وجد يجارب أدق أن أولئك الذين تبعوا في مجلة هذا التمثيل لتناقض
قد أخطأوا .

فإذا رأينا يا (كياش) منزلا فإننا نستنتج في أعظم يقين أنه كان
له مهندس أو بناء ، لأن هذا هو على الدقة ضرب المثل الذي رأينا
بالتجربة أنه ينتج عن ذلك الضرب من قلة . ولكنك لن تذهب
بالأكد إلى أن بين المثل وبين المنزل تشابها بحيث يمكننا بنفس اليقين
أن نستدل على علة مماثلة ، أو أن التمثيل هنا تام كامل . والاختلاف
من القوة بحيث أن غاية ما يسبك زعمه - هنا - تفهين أو تكين
أو افتراض خاص بعة مشابهة ، وانك لك أن ترى كيف يخلق الناس
هذا الزعم .

(كياش) : - سيما تعلقه جدا - بالتأكيد - وأسأحق الملام
والإجابة لو سلمت بأن الأدلة على إله لا تبدو تفهينا أو تكينا . ولكن
هل للتوافق التام بين الوسائل والمايات في منزل أو في العالم بعض تشابه
مثير ؟ أ كذلك تدبير الملل الغائية ونظام كل جزء وتناسبه وترتيبه ؟
ألا إن دمج السلم مصنوعة بحيث يسع الأقدام البشرية أن ترقاها في
يسر ، وهذا الاستدلال يقين مصوم . لقد صنعت الأقدام البشرية

أجلا للمشي والصوره ، وأنا أسلم بأن هذا الاستدلال ليس يقينا على
انقضاء لما هناك من تفاوت لاحظته أنت ، ولكن أينما لم من ثم اسم
افتراض أو تكهن بحسب .

(ديان) : [يسبح ضلعا]

يا إلهي ، أين نفس ؟ إن المناظر من الدين المحضين له يسلمون بأن
الأدلة على إله تقتصر إلى شاهد كامل . وأنت يا ديان - وقد ركنت
إلى عضدك في التبدل على الموضوع المحض في الطبيعة الإلهية - هل
توافق على حجج (كياش) هذه الجاه ؟ إذ أي اسم آخر يمكنني أن
أطعمه عنها ؟ ولم أكنم انتقادي ما دامت مثل هذه المبادئ تعرض
أمام شاب باقم (كياشيلوس) مدحمة يمثل هذا السند ؟

« (فلون) : يبدو أنك لا تدرك أني أناقش (كياش) باريته
وأمل في النهاية - بإظهاره على النتائج الخطيرة لمناقضته - أن أثوب به
إلى رأينا . ولكنني الأسط أن أشد ما يحيرك هو الصور الذي اتخذته
الحجة البديهة ، وعند ما تجد تلك الحجة تتكاد تفلت من زمامك وتأتى
بعيدا عنك تحسب أنها مستخفية حتى ليشق عليك التصديق بأنها مبرورة
في منوطها الحقيقي . والآن - وإن كنت كثيرا ما أعاف في مواطن
أخرى مبادئ (كياش) الخطرة - ينبغي لي أن أسلم بأنه قد قدم
تلك الحجة تقديرا صريحا ، وأسأول أن أرضى عليك الموضوع بحيث
لن يبالغك ارتياب جديد فيها :

لو أن إنسانا مجرد من كل شيء بصره أو براه ليجر مجرأ تاما عن

أنت حين - إسناداً إلى أفكاره الخاصة بحسب - الصورة التي عليها العلم أو فن يؤثر بالفضل وصفاً للأشياء أو حالة لها على وضع أو حالة أخرى ، وإذ لم يكن شيء ما يتصوره بوضوح مستعلاً أو مشتتاً على تناقض ، فإن كل صورة واضحة في عقله تكون على منزلة عائلة لمزلة الأخرى ولن يكون في مقدوره أن يبين أى سبب صحيح لكونه يتبع فكرة أو مذهبا ويقص فكرة أو مذهبا آخر وكلاهما مستوي في الإمكان .

ثم : بعد أن يفتح عينه ويأمل العالم كما هو في الواقع يبدو من المستحيل عليه بأى دى بدء أن يبين حالة أى حادثة وأقل من ذلك أن يبين حالة الأشياء جميعاً أو العالم . في وسعه أن يدبر عقله ، وفي وسعه أن يحد بتصور لامتناه من التقارير والتصورات . كل هذه ممكنة ، ولكن لكونها تستوي في إمكانها ، لن يستطيع البتة أن يقدم من نفسه تفسيراً لتفضيله واحداً منها على سائرهما . في وسع التجربة وحدها أن تظهره على العلة الخفية لأية ظاهرة .

والآن يا (دميان) يقرب على هذا المنهج في الاستدلال - وقد سلم بهذا (كلياتش) صيحاً - أن النظام والترتيب أو توافق النهايات النهائية ليس بدهاء دليلاً على التدبير ، ولكنه كذلك بحسب بقدر ما رأينا بالتجربة أنه يحجم عن ذلك المبدأ . فإننا نستطيع أن نعرف معرفة غريبة أن المادة يمكن أن تشتمل في الأصل في ذاتها على نبع النظام أو مصدره على نحو ما يفعل الذهن ، والصعوبة في تصور أن العناصر يقع لها أدق ترتيب بفعل علة باطنية مجهولة ليست أكبر منها في تصور أن أفكار

هذه العناصر يقع لها الترتيب في الذهن الكلي العظيم بفعل علة باطنية مجهولة عاتقة فالإمكان المتعادل في كلا التوجهين . لم به ، ولكنا نجد بالتجربة - فيما (كلياتش) - أن هنالك ظارفاً بينهما : أرم مما قطع عديدة من الصلب لاشكل لها ولا صورة لها لن تترتب البتة بحيث تولف ساعة ، وإن الحجر والبلاط والحطب من غير مهندس لن تقيم البتة منزلاً . ولكننا نرى أن الأفكار في ذهن بشرى تترتب تدبير مجهول - مستحسن على التدبير - بحيث تكون شملة سادة أو منزل . فالتجربة من ثم تدل على مبدأ أصل النظام في الذهن لا في المادة ، ونحس تستدل من مسرعات مشاة على عار مشاهيه . وتوافق الوسائل والغايات في العالم مماثل لتوافقها في آلة من إبداع البشر ، ومن ثم يلزم أن تكون العلة المثل متشابهة .

لقد افترضت منذ البداية - وهذا ما أقر به - بهذا التشابه المزعوم بين الله والمخلوقات البشرية ، وينبني لنا أن أتوره منطوي على ضرب من الخطأ من شأن الموجد الاسمى لا يبع أى مؤمن صادق أن يطبقه . ومن ثم فسأحاول يهونك يا دميان أن أأصح عما دعوته - بحق - القموض المشرق في الطبيعة الإلهية ، وسأدحض استدلال (كلياتش) الذي صورته - بتسليمه - تصوراً آمناً .

[هذا وافي (كلياتش) معنى (ديون) حد وحة صحت على النحو التالي]

والآن يا (كلياتش) لن أسألك كثيراً في أن كل الاستدلالات المختصة بالواقع مثبتة على التجربة ، وكل الاستدلالات

التجريبية منجبة على افتراض كون العلة المثالية دليلاً على معلومات مثالية .

ولكنني أستك إلى ملاحظة مدى التعرط البالغ الذي يقدم به المستدلون بالدول على نقل التجارب إلى حالات مثالية ، فإلم تكن الحالات مثالية تماماً دقيفاً تعرض لثقتهم بتطبيق التجربة الماضية على أية ظاهرة جوية . وكل تغير في الملابس يفضي إلى ذلك في الحادثة ويتطلب تجارب جديدة للتدليل في يقين على أن الملابس الجديدة لا شأن لها ولا أهمية . إن أى تغير في حجم الهواء أو الأجسام المحيطة ، في حالتها وفي ترتيبها ، في حرما وفي وضعا ، أى جوية من هذه الجزئيات تصحبا أبعد النتائج من التوقع . وما لم تكن المخروجات مألوفة لنا إلماً تماماً فمن أشد التهور أن توقع حادثة مشابهة لذلك التي وقعت من قبل تحت ملاحظتنا . وخطوات الفلاسفة الوثيدة الانسانية - ههنا وفي كل مجال - تتميز من السير المتدفق عند العوام الذين يتجولون مستعدين إلى أحوال لغابه وهم قاصرون عن كل فطنة أو تدبير .

ولكن هل يمكنك يا (كلياتش) أن تظن أنك قد حافظت على ظنك وعدم مبالاةك بمثل تلك الخطوة العريضة التي خطوتها حين قارنت العالم بالمازَل والسن والآثا والآلات ، وخلصت من تشابه في بعض الملابس تشابه في ههنا ؟ إن الفكر والتدبير والذكاء كما تكشفها في الآناسي والخيرانات الأخرى لا تندو أن تكون أحد

متابع العالم ومبادئه شأن الحرارة أو البرودة والاختجاب أو الارصاد ومئات أخرى مما يقع تحت ملاحظتنا اليومية . ثم هل تجد بها أن بعض الأجزاء - خاصة في الطبيعة - تولد تحولات في أجزاء أخرى . ولكن هل في الوسع - بأية صفة - أن تنقل نتيجة من الأجزاء إلى الكل ؟ هل يمنع الضاوت العظيم كل حقارة أو استدلال ؟ هل نستطيع من ملاحظة جرم شجرة أن نعلم شيئاً ما مختصاً بشكوك الإنسان ؟ وهل يمكن أن تزود من طريقة إحصاء ورقة شجر - وإن عرفنا ما معرفة كاملة - بمعلومات عن الخضار شجرة ؟

ولكن إذا سلنا بأنه ينبغي لنا أن نأصمى عمليات جزء من أجزاء الطبيعة بعمليات جزء آخر لنقيم حكماً فيما يخص بأصل المنهج - وهذا ما لا يمكن الأخذ به قط - فلم إذن نختار مثل ذلك المبدأ البالغ في دقة وصعوبة وضيقه - شأن العقل والتدبير في الحيوانات - في هذا الكوكب ؟ أى ميزة خاصة لهذا الاختلاج الضئيل في المنح - الذي ندعوه فكراً - حتى يلزم لذلك أن يمسنا تمثله على كل الظروف . ولكن ينبغي للفلسفة السليمة أن تدفع في عناية هذه الاغلوطة الطبيعية .

(مستمراً في حديثه)

٨ وإذا كنت بعيداً عن أن أسلم بأن في مقدور عمليات جزء أن تزودنا بنتيجة صحيحة من أصل الكل ، فأكنت لأسلم بأن جزءاً ما يمنع

قاعدة لجوء آخر ، إذا كان الثاني ثانياً جداً عن الأول . هل ثمة أساس معقول لاستنتاج أن لسكان الكواكب الأخرى مفكراً وذكاء وعقلاً أو أى شيء مماثل لهذه السمات في الآس؟ لما كانت الطبيعة قد نوعت تنوعاً تاماً في طريقة عملها في هندسة الكرة الصغيرة فهل يسعنا أن نتجمل أنها تحكي تها دون توقف في جوانب عالم بالغ في انشاعه؟ وإذا كان الفكر - كما نأمن بحق - محصوراً في هذا الركن الضيق غريب ، بل وله في هذا الركن أيضاً دائرة من الفصل بصفة التعبد ، فبأي مداد نستطيع أن نجمل منه هذه الأشياء جميعاً؟ إن نظرات الفلاح الصيفة ، ذلك الفلاح الذي يعمل من التدبير المزدلي قاعدة لحكومة الممالك ، هي - بالمقارنة - منسقة يلتمس لها المذر

ولكن إذا كان لنا أدب تنق إلى حد كبير بأن مفكراً وعقلاً - يشبه تفكير والعقل البشري - يلزم أن يجهضها في جوانب العالم جميعاً ، وإذا كان نشاطهما في مكان ما أعظم إلى حد بعيد وأقوى سلطاناً مما يبدو في هذه الكرة فاني لا أستطيع أن أرى لم كانت عمليات عالم مكون مرتب منظم يمكن أن تبسط انبساطاً مديداً إلى عالم لا زال جيباً وما قد يتقدم نحو ذلك الكون والترتيب نحن ندلم - بالملاحظة - بعض الشيء عن تدبير حيوان فان فعله وغذائه ، ولكن يجب علينا أن ننقل تلك الملاحظة - بنظر عظيم - إلى نمو الجنين في الرحم ، وبمجرد أعظم إلى تكون الجرثومة في أصلاب والده الذكر . نحن نجد - حتى من تجربتنا المحدودة - أن الطبيعة عدداً لا متناهاً من المناهج

والمبادئ تكشف عن نفسها باستمرار عند كل تمرير في وضعها وحالتها . ونحن نستطيع - دون تردد بالغ - أن ندهي تعيين أى عال ومبادئ جديدة مجهولة تشير الطبيعة في مثل حالة جديدة مجهولة كخالة تكون عالم .

إن جزءاً صغيراً جداً من هذا النظام قد انكشف لنا في غضون زمن قصير جداً انكشافاً ناقصاً ، فهل لنا من ثم أن نقول قولاً قاطعاً فيما يختص بأصل الكل ؟

نتيجة راسخة ! الحجارة والخشب والأجر والحديد والنحاس ليس لها في هذا الزمن في هذه الكرة الدقيقة من الأرض نظام أو ترتيب يغير الفن والابتداع البشري . ومن ثم لم يكن في وسع العالم في الأصل أن يدرك نظامه وترتيبه إلا بما يشه الفن البشري ، ولكن أليكون جزء من الطبيعة قاعدة لجوء آخر منها شاسع جداً ؟ أليكون قاعدة للكل ؟ أليكون جزء صغير جداً قاعدة للعالم ؟ هل الطبيعة في إحدى الحالات قاعدة معينة الطبيعة في حالة أخرى بآلفة في احتلالها على الأولى ؟

وهل يمكنك يا (كلياتس) أن تلومني إذا حاكيت هنا تحفظ

(سيمونديس)^(١) الصبر ، الذي طلب - كما جاء في قصة المشورة^(٢) - عندما سأله (هيرو)^(٣) أى شيء كان الله ؟ طلب يوماً ليفكر في السؤال ثم يرمي آخرين ، وما زال يجد الملهة على هذا النحو دون أن يقدم تعريفه أو وصفه ؟ هل لك إذن أن تلومني إذا كنت قد أجبت في البداية أنني لا أعرف ، وكنت أحس أن هذا الموضوع يقع بعيداً جداً شاملاً عن متناول ملكان ؟ يمكنك أن ترميني بأنني شاك أو هازل ما لذ لك هذا ، ولكنني لما وجدت نقائص من نقائص العقل البشري في موضوعات أخرى أكثر لكمة ، فليس لي البتة أن أنتظر أى نجاح من تكلماته الواهية في موضوع على مثل هذا السور والبعيد عن دائرة ملاحظتنا

إذا لاحظ أن جنين من الموضوعات قد اقترنا معا دائماً فاستطيع أن أستدل بالمادة على وجود الواحد حيناً أشاهد وجود الآخر ،

(١) Simondes: عناصر فنون يوناني اشهر بالرائي الوطنية والأساطير واللاهوتية الرومية. (١٠٦-١١٧ ق م) على القريب [الترجم].

(٢) [راجع إلى كتاب (طبيعة الآفة) لتيهيمور - الكتاب الأول ٢٢ Cicero : De Natura Deorum. أظهر في ذلك ما من ص ١٤٩ من طعة كسحت المجلدات. لندن سنة ١٩٤٧ [لترجم].]

(٣) Hiero : ملطية من طهه سيرا فوس حكم من ٤٥٨ - ٤٢٧ ق م. كان حجة ، الشدة ، الكتاب [الترجم].

وهذا ما أدعوه حجة من التجربة ، ولكن قد يكون من السهول أن نفسر كيف يمكن أن تطبق هذه الحجة حين تكون الموضوعات - كما هي في الحالة الراهنة - فريدة فردية لا تتأثر أو تشابه نوحى بينها ، وهل لإنسان ما أن يذكر لي في جد أنه يجب أن ينشأ عالم منظم من فكر أو في ما كالفكر أو الفن البشري ، لأن لدينا تجربة عنه ؟ ويتطلب تأكيد هذا الاستدلال أن تكون لنا تجربة عن أصل السؤال ، وليس يمكن أننا قد رأينا سفناً ومدناً تنشأ من الفن والابتكار البشري .

• كان [فلون] ما يجاهد الطريقة المارة ، الترجمة إلى حده ما - على ما بدا لي - من المزاج والجد عندما لمع بعض حالات تمام الصبر على [كلياتس] وحيلته تواف على الفور .

(كلياتس) : - لقد كنت أريد أن أقترح أنك يليني لك ألا تسمى استخدام الألفاظ أو تتلفع بالاصطلاحات القصية لتقلب الاستدلالات الفلسفية . أنت تعلم أن السوقة كثيراً ما يميزون العقل من التجربة حتى عندما تصل المسألة بأمر الواقع والوجود لحسب ، ومع ذلك نجد عند تحليل ذلك العقل تحليلًا صحيحاً أنه ليس إلا نوعاً من التجربة . إن التدليل بالتجربة على أصل العالم من الذهن ليس أكثر تعارضاً مع القول الشائع من التدليل على حركة الأرض من نفس المبدأ . وقد يشير مكابر نفس الاعتراضات جميعاً على النظام الكورنيكي

أى تشابه كذا بين بناء منزل وتكوين عالم ؟ هل حدث لك أن رأيت في الطبيعة حالة تشبه أول ترتيب العناصر ؟ هل حدث أن صيغت العوالم تحت بصرك ؟ وهل أتيتك أن تلاحظ تقدم الظاهرة بأسره من أول تبدل النظام إلى تمامه النهائي ؟ إذا كان قد نبأ لك هذا فارو لنا تجربتك وفسق نظريتك .

الفصل الثالث

(كلياتش) : انى أعجب من تلك الحجج الماسدة حين تصبح في يدى العبقري المبتدع على شيء من الرجحان ! ألسنت على ينة (فيلزن) من أنه قد أضى من الضرورى (لكورنيكوس) وتلاميذه الأول أن يدللوا على التشابه بين المادة الأرضية والمادة السايوية لاشيء إلا لأن كثيرا من الفلاسفة وقد أعتمدت المذاهب القديمة وأعطت بعض المظاهر الحسية قد أنكروا هذا التشابه ؟ ولكن ليس من الضرورى للمؤمنين - بأى حال - أن يدللوا على التشابه بين أعمال الطبيعة وأعمال الفن لأن هذا التشابه بديهي غير منكور . إن التماثل في المادة ليعتد تماثل في الصورة . أى شيء يلزم هذا لإظهار تماثل بين علما ولتأكيد صدور الأشياء جميعا عن غرض ومقصد إلهي ؟ يجب على أن أذكر لك بحرية أن اعتراضاتك ليست أفضل من المكابرات الباطلة عند أولئك الفلاسفة الذين أنكروا الحركة وبنوا دعائمهم بنفس الطريقة ، أخص بالصور والتماذج والأمانة تخيرا من الحية والفلسفة الجادة .

هـب من ثم أن صوتا واضح التواتر قد سمع بين السحب أهل وأرغم من أى صوت يمكن للفن البشرى أن يصل إليه ، هـب أن هذا الصوت قد انبسط في اللحظة عينها على الأوطان جميعا ، وتحدث إلى كل وطن بلهجة ولهجة الخاصة ، وهـب أن الكلمات المفلوطة لا تشمل

٤ : ٢ : عورتى للرب اليس

الدى عارضت به استدلالى قد يقول لك هل لديك أرض أخرى رأيتها تتحرك ؟ هل . .

[فيلوز : (بجمع غاطسا)]

نعم لدينا أرض أخرى أليس القمر أرضا أخرى تراها تدور حول مركزها ؟ أليس الزهرة أرضا أخرى ملاحظ بها الظاهرة عينها ؟ أليس انقلابات الشمس أيضا تأيدا بالتشبه للنظرة نفسها ؟ إن لم تكن الكواكب جميعا أراضي لها الذى يدور حول الشمس ؟ أليس للسيارات أقمارا تدور حول المفترى وزحل وتدور مع هذه الكواكب الأولية حول الشمس ؟ هذه التمثيلات والمساومات على جانب أخرى لم أذكرها - هي الأدلة الوحيدة على النظام الكورنيكي ، وهليك أنت أن ترى ما إذا كان لديك تمثيلات من النوع نفسه لدعم نظريتك .

[وصى يفسد - و]

والحق يا (كلياتش) إن الباحثين جميعا قد أخذوا إلى حد عظيم بالنظام الحديث في الفلك . وقد أصبح هذا النظام جزءا جوهريا حتى في تعليمنا المبكر ، وبلغ من جوهريته حدا لم نعد معه - بوجه عام - ترتيبا أدنيا كبيرا في نفس الأسباب المنبث عنها وأصبحت تدرس أوائل من كتبوا في هذا الموضوع ارتضاء للتطلع وحده ، أولئك الكتاب الذين كان عليهم أن يجاهوا التعرض أقوى ما يكون ، وكانوا مضطرين أن يدوروا حولهم على كل جانب ليبلوهم شمية مقنعة .

ولكننا إذا تصفحنا بأحد عاورات (جاليليو) الشهيرة في نظام العالم ستجد أن ذلك العبقري العظيم - وهو واحد من أسس العبارة الذين ظهروا في الوجود - قد صوب كل عاولاته أولا للتدليل على أن ليس ثمة دعاية للتميز الذى تقوم به - بوجه عام - بين الجواهر الضمنية والجواهر السايوية . وقد مضت المدارس قديما هذا التميز إلى حد بعيد - صادرة عن أعاليط الحس - وأفرت أن الجواهر الأخيرة لا تدخل ، ولا تفن ، ولا تتحول وأنها غير محسة ونسبت الكيفيات المضادة جميعا للجواهر الأولى ، ولكن (جاليليو) بابتدائه بالقمر دليل على مشابهته في كل جزئية للأرض . في كنهه المحدث في ظلاله العليبي عند عدم إضاءته في كنهه ، في تقسامه إلى صلب وسائل ، في تنوعات وجوهه ، في الأنواء المتبادلة بينه وبين الأرض ، في الخسوف المتبادل بينهما ، في عدم التساوى في السطح المائى . . الخ . رأى الناس بوضوح - بالنظر إلى البكواكب بعد كثير من الأمثلة من هذا الضرب - أن هذه الأجسام أم بحت موضوعات حققة للتجربة ؟ وأرن التشابه في طبيعتها يمكننا من لسط الحجج والنظائر عينها من الواحد إلى الآخر .

في تقدم التلسكيب الحديث في هذا ، يمكنك يا (كلياتش) أن تطالع ما يدحض قولك أو - بالأحرى - ترى أن الموضوع الذى تشغل نفسك به يتحلى كل عقل وبحث بشري ؟ هل يمكنك أن تدعى إظهار

منى صحيحا وحسب بل وتعمل أيضا تائبا ما خليقة بوجود جواد
أسمى من الجنس البشرى أيكون في وسعك أن تردده لحظة فيما يختص
بمعة هذا الموت؟ وهلا يجب عليك أن تنسب في الحال إلى عرض أو
هدف ما؟ يد أتي أستطيع أن أرى أن نفس الاعتراضات - إذا
كانت تتأهل هذه التسمية - المنسبة على مذهب المؤمنين، يمكن أيضا
استخدامها ضد هذا الاستدلال .

أليس يسعك القول بأن كل النتائج المختصة بالواقع قد انتهت على
التجربة: إنا عندما نسمع في القلالم صوتا واضح التبرات ونستدل من
ثم على إنسان فالتعبه بين الملوالات نحسب هو الذي يؤدي بنا إلى
استنتاج تشابه عائل في الملة . ولكن هذا الصوت الخارق بما فيه من
علو وانبساط ومرورة يبعث الفات يطوى على عائلة ضئيلة لاي صوت
بشرى، حتى أنه ليس ثمّة داع يجعلنا نفترض تماثلا في طلبها، وبالتالي
فهو قول مقول حكيم منسق لا تدرى من صدر من صفي ربح طارىء
لا من عقل أو ذكاء إلهي؟ فأنت ترى بجملة أن مكان اعتراضاتك
هو بين هذه المكابرات، وأنتى لامل أيضا أن ترى بجملة أنها لا يمكن
أن تكون أقوى في حالة منها في الأخرى .

ولكن لكي نجعل الحالة أقرب إلى حالة العالم الراضة سأقدم
باعتراضين لا يتطويان على بطلان أو استدلال هب أن هناك لغة
طبيعية عالية ثابتة مشتركة بين أفراد الجنس البشرى جميعا، والكتب هي

(ليني^(١) وتاكيوتس^(٢))، وإن أي اعتراض يتبادر به في الحالة الأولى
بأن تنكصن على أعتاق إلى شديد غير متباد خارق كذلك الشهد
الحاصل بالصياغة الأولى للعالم، أن هذا الاعتراض نفسه ينطبق على
افتراض مكتبتنا الثانية . اختر إذن يافيلون جانبك دون أيس أو
تهرب وازعم أن جملة عقليا ليس دليلا على حلة عقلية أو فسل حلة عائلة
لأعمال الطبيعة جميعا .

(ومنى سكيكش يقول)

دعني ألاحظ هنا أيضا أن هذه الحجة الدينية بدل أن يوهنها ذلك
الشك الذي أوغلت في تكلفه تكتسب بالآخرى القوة منه ومخير
أرسله وأبعد عن الجدال . إن رفض كل حجة أو استدلال من كل نوع
لهو إما إندفاع عاطفي أو حنون، وإن التعالم المبرورة عند كل شاك
مزن هي تحسب رفض الحجج البنية الثانية الرفية وانباع الذوق السليم
وعرائز الطبيعة البسطة، والتصديق حينما تؤثر فيه أسباب ما تأثرا بالنا
في قوته بحيث لا يستطيع أن يمتنح إلا بنصف شديد . والآن إن صحيح
الدين الطبيعي هي - بكل بساطة - من هذا النوع وليس ثمّة شيء يمكن أن
يرفضها إلا أشد المية يوريقا التواء وعنادا . تأمل في العين شرحها، واقب
تركيبها وصياغتها، واذكر لي من شعورك الخاص ما إذا كانت فكرة

(١) Lévy مؤرخ روماني (٥٩ ق.م - ١٧ م) له تاريخ روماني ١٤٢
سفر على منها ٣٠٠ سطر أعنت تأسيس المدينة . (القديم) .
(٢) Tacitus مؤرخ روماني له تاريخ روماني وتواريخ ومحاورات
بين الحدا . (القديم) .

ثمرات طبيعة تحافظ على بقائها - على نحو ما تفعل الحيوانات والحصر -
بالسلالة والانتشار، وأن تميزات عديدة من مواطننا تفعل لغة
عالية، واللبائهم جميعا حديث طبيعي وإن يكن محدودا إلا أنه موافق
لنوعنا موافقة عظيمة . وكان هناك أجواء أضال لاحداها، وانكاراً
أقل في أدق تأليف بلاغي منه في أخلط جسم عضوي فكذلك انتشار
الابادة أو الأيادة اعتراض أيسر من انتشار نبات أو حيوان .

هب من ثم أنك ارتدت مكتنتك وهي حالة محيطات طبيعية مشتملة
على أرفع عقل وأبدع جمال، فهل في وسعك أن تفتح بعلمنا واحدا منها
وتشك في أن صته الأصلية تحمل أقوى عائلة بينها وبين الدهن والذكاء؟
عندما تستدل وتحدث عندما تتأجج وتناظر وتعمل نظراتها ومباحثها،
عندما تستخدم العقل المحض أحيانا والعواطف أحيانا آخر عندما تجمع
وتنسق وتدمق كل اختيار يوافي الموضوع، فهل في وسعك أن تصر على
الزعم بأن هذا كله لم يكن له في قراره أي معنى، وأن أول صياغة لهذا
المجد في أصلاص منفك الأول لم تنجم من الفكر والتدبير؟ إنني لأعلم
أن عنادك لن يبلغ بك هذه الدرجة من الصلابة . بل وهبك الشكي
وهوك ليخيلهما هذا الخشرك الصراخ .

يد أنه إذا كان ثمّة فارق يا (فيلون) بين هذه الحالة المقترضة والحالة
الحقيقية للعالم فإن الفهم كله يعود على الأخيرة . إن تشريح حيوان
يزودنا بمئة عديدة على التدبير أقوى من تلك التي تزودنا بها مطالعة

صانع عاص قد عنت لك في الحال بقوة مائة لتوة الإحساس . إن
أوضح نتيجة هي على التأكيد في صالح التدبير وتطلب وقفا وتأملا
ودراسة لتجمع تلك الاعتراضات الثافية التي قد تدم الإلهاد - وإن
تكن اعتراضات ضعيفة . فن ذا الذي يستطيع أن يشهد الذكر والأنثى
من كل جنس ويلحظ التوافق بين أجزائهما وفرائضهما، بين صواطفهما
ومجرى حياتهما قبل التواله وبعده ولا يشعر أن انتشار الجنس قصد
الطبيعة؟ إن ملايين وملايين من هذه الأمثلة لتل في كل جزء من
أجزاء العالم، وليس ثمّة لغة يمكن أن تحمل معنى أكثر تعقلا وأبعد عن
أن يقاوم من ذلك التوافق الغريب بين الملل الغائنه . ومن ثم فإلى أي
درجة من الدماطيقية العمياء يلزم أن يصل المرء ليمنى مثل هذه الحجج
الطبيعية المقنعة؟

قد تلقني في الكتابه بعض وجوه الجمل - تبدو متناوذة مع
القواعد - تجذب العواطف وتحرك الجبال مع مناقاتها لتعاليم الفقد جميعا
ولسلطان الأساتذة لراستين في الفنى وإذا كانت حجة الاعتقاد بالله
هي كاتدهى مناقضة لمبادئ المتعلق بأن كاتبتها وشعردها غير المانع
لبدلان يوضح على أنه قد تكوّن - هنالك - جميع عائلة من طبيعة
شاذة . وأيا كانت المكابرات التي قد تثار فإن عالما منظما لا يزال
يقبل - شأنه شأن حديث منق واضح - على أنه دليل غير منكور على
التدبير والقصد .

وبعدت أحيانا - كما أسلم - ألا يكون الصحيح الدينية نفوذها الذي
تستأله على وحش جمال وبربرى، لا لأنها غامضة صعبة، بل لأنه لا يزال

قده ألبه أى سؤال جسددها : متى نشأ التركيب العريب للجوان ؟ من تراوح والديه ، ومتى نشأ تركيب هذين ؟ من والديهما ؟ انتقالات قلية تجعل الموصوع على بعد منه بحيث يقتضيهما فى ظلام وخط ولن بحثه أى تطلع على تبيها إلى أبعد من ذلك . ولكن هذه ليست دجاطقة ولاهى شكية وإنما هى فضاء ، أعنى حالة للذهن تختلف اختلافا عظيما عن موقفك المدقق الباحث بأصديقى الميقرى . فى وسعك أن تصل إلى الملل عن طريق الملولات وفى وسعك أن تقارن بين أبعد الموضوعات وأقلامها ، وإن أعظم أخطائك ليست تنجم عن جذب فى الفكر والإبداع بل من مرطخص بكتب ذوقك السليم الطيى بفيض من الارتيايات والاعتراضات التى لا ضرورة لها .

• وهنا كان فى وسى . (هرمسوس) أن لاحظ أن (ديون) قد دخل وأخط عليه الأمر شيئا ما ، بيد أنه إذ كان مترددا فى البادرة بالإجابة تدخل (ديبلد) - لحسن حظ - فى الحديث مستغفرا ما وجهه •

(ديمان) : لما كان مثلك يا (كباتش) المستقى من الكتب والثقة ما لوفا فإن له باعتراق قوة أعظم فى هذه الناحية ، ولكن أليس ثمة خطر أيضا فى هذه الحالة حينما ؟ أليس فى وسعهم أن يجلبوا معرورين . إذ يوهنا بأننا نجعل بالله وأن لدينا فكرة موائمة عن

وملام وشفقة وغيره وحسد ، صلة واسعة بحالة الإنسان ولما دخل فى استمرار الوجود وفى ترقية نشاط مثل هذا الموجود فى مثل هذه الملابس . ومن ثم يبدو من غير المعقول أن تنقل مثل هذه المشاهير إلى موجود أسمى أو تقتضى كونها تيره ، هذا إلى أن ظواهر العالم لن تزيدنا فى نظرية كده ، إن جميع أفكارنا المستمدة من الحواس باطلية متعلقة مشوشة وليس فى الوسع - من ثم - اقتراض مكان لها فى عقل أسمى . ولما كانت أفكار الإحساس الباطن مضادة إلى تلك الخاصة بالحواس الخارجية تولد كافة متاع العقل البشرى فى وسعنا أن نخلص بأن ليس ثمة مادة من مواد الالذهن متبائلة - فى أى موطن - فى العقل البشرى والعقل الالهى . والآن - فيما يتصل بطريقة التفكير - كيف تقوم أية مقارنة بينهما أو نفرجهما على نحو ما يتباين ؟ أن تفكيرنا متقلب متغير إلى اليقين ، سيار ، متعاقب ومركب ، وإذا حينما جانا هذه الملابس لمحرنا جوهره محورا فاما ، وفى هذه الحالة يندو من أساءة استخدام الالفاظ أن نطلق عليه اسم الفكر أو العقل . وإذا بدا - على الأقل - أكثر تقوى واحتراما - كما هو فى الواقع - أن تحتفظ بهذه الالفاظ حين ننوه بوجود أسمى فينبى أن ندرك أن معناها - فى تلك الحالة - غير مفهوم على التمام ، وأن نقاخص طبيعتها لا تيسر لنا الوصول إلى أفكار ما تطابق على أقل تقدير تسمى الصفات الإلهية التى لا يمكن التعبير عنه .

طبيعتها وصفاته ؟ عندما أقرأ أجد دائما أنى أفتد إلى ذهن المؤلف وقصده ، أتى لأكونه على نحو ما - ولتلك الفترة - ويكون لدى شعور مباشر وحضور مباشر لتلك الأفكار التى جالت بذهنه عندما كان مشغولا بوضع مؤلفه . ولكن ليس فى وسعنا قط أن نقوم بهذه المقارنة بجدد الله . فطرائقه ليست طرائقا ، وصفاته كاملة ولكنها غير مفهومة . وكتاب الطبيعة هذا ينطوى على لغز عظيم - مستصعب الفهم - أعظم من أى حديث أو استدلال مفهوم .

وأنت تعلم أن الانلاطونيين القدامى كانوا أكثر الفلاسفة الوثنيين تدنيا وورعا ، بيد أن كثيرا منهم - وهى الأحص (أفلوطين) -^(١) يطن فى صراحه أن العقل أو الفهم لا يفعل لله ، وأن أكل عبادة مثاله تخلص لا فى أفعال الاحترام والتوقير والوفاء أو المحبة بل فى ضرب من الفناء الذاتى الفاضل أو التلاشى التام بجميع ملكاتنا . وربما انبسطت هذه الأفكار إلى مدى بعيد جدا ، ولكن يجب أن نعلم - مع هذا - أن فى تمثيل الله معقولا مفهوما مائلا لذهن البشر وصحة لنا بأفخذ تحرب وأخيرة وباتخاذ أنفسنا أنودجا العالم يرتقته .

إن لمواطف الالذهن البشرى جيما من وقاء وبرم وصداقة وروحى

(١) أفلوطين : (٢٠٥ - ٢٧٠ م) يندو من المدرسة الانلاطونية الجديدة ، تلمذ ببدرة الاسكندرية - منجب قائم على وحدة النفس واه بالقاء والتأمل [المعجم]

الفصل الرابع

(كلياتش) : يبدو غريبا يا (ديمان) أنك وأنت الوثائق ثقة شديدة بتضية الدين لازلت آخذنا بطبيعة الله فاضة غير مفهومة ، وما برحت تلج فى احتدام على أنه ليس يته وبين المخطوقات البشرية أى نحو من المماثلة أو التشابه . يمكننى أن أبادر فأسلم بأن لله قوى وصفات عدة لا إحاطة لنا بها . ولكن إذا كانت أفكارنا - مهما جد مدى ما تصل إليه - ليست صحيحة وموائمة ومطابقة لطبيعتها الحقيقية ، فليست أعرف ما هو جدير بالأكيد فى هذا الموضوع .

هل للالهم بدون معنى مثل هذه الأهمية القوية . وكيف تختلفون أنتم المنصوفة - وأنتم تأخذون بعدم الإحاطة [علاقا بالله - من الشكاك والملاحدين الذين يزعمون أن الاله الأولى لكل مجهولة لا سبيل إلى تمثيلها ؟

إن نبههم لابد وأن يكون عظيما جدا ، إذا كانوا بعد تمحيثهم الاتاج من ذهن - أى ذهنا مائلا للذهن البشرى ، فليست أعرف ذهنا غيره - يودون فيدهون أنهم يبينون فى يقين عقل أخرى نوعية معقولة - بل ويلزم أن يتعالج ضميرهم الارتياك الشديد أيضا ، إذا أبوا أن يسموا الاله الكلية المجهولة لهما ، وأن يظلوا عليه المدائح والالجاب المدينة الحالية من المعنى ما لته لك أن تخالهم به .

(ديان) : من كان يمكنه أن يظن أن (كلياش) ، (كلياش) المادى. المتخلف سيحاول أن يخصص خصومه بأن يرميهم بشئ ، ويستمر - شأن عامة وضوئى الصبر - بالخطاب الخاسى والقندج بدلا من الاستدلال . أولا يدرك أن هذه المباحث من الميسور الخامها وأن المشبهة تسمية تبلغ مبلغ لقب الصوفى - الذى شرفنا به - فى اجتماعها لخص وفى انطوائها على نتائج خطيرة . والحق با(كلياش) أن تروى فكره فيها تؤكد حين نمثل افقه مشابها للنمن وفهم بشرى . ما هى نفس الإنسان ؟ انها تأليف من ملكات وعواطف ومشاعر وأفكار متروكة متحدة حقا فى (أنا) واحدة أو شخص واحد ، يد أنها لا تزال متحدة الواحد منها عن الآخر . وعندما تستدل تحرب الأفكار - وهى أجواء حديثا - فى صورة معينة أو نظام معين لا يبقى على إطلاقه لحظة بل يسمح السيل فى الحال لترتيب آخر ، أو تنشأ آراء جديدة وغوالب جديدة وأساسيس جديدة تتركب تشكيلا متواصلا من المبدأ العقل وتولد فيه أعظم تنوع وأسرع تقارب يمكن تخيله ، فكيف يكون هذا مراتلنا لهذا الثبات الكامل وهذه البساطة الكاملة اللذين ينسبهما كل المؤمن الصادقين ؟ هم يقولون أنه يرى - بفعل واحد - الماضى والحاضر والمستقبل ، محبته وكرامته ورحمته وعدله ، كلها على مفردة واحدة : فهو مطلق فى كل نقطة من نقط المكان وهو كامل فى كل لحظة من لحظات الزمان . فليس ثمة تقارب ولا تغير ولا زيادة ولا نقصان . وما هو عليه لا يتطوى على أى ظل من ظلال التغير أو التمسك .

وما يكونه فى لحظة كان عليه أبدا وبظل عليه أبدا ؛ دون حكم جديد أو احساس جديد أو عملية جديدة فهو يثبت على حالة واحدة بسيطة كاملة ، وليس من السداد قط أن تقول إن فعله هذا يختلف عن فعله ذلك أو أن هذا الحكم أو هذه الصكرة قد صيغت أخيرا ومتضح السيل - بالتعاقب - لحكم آخر مختلف أو فكرة أخرى مختلفة .

(كلياش) : إننى لاسلم طامعا بأن أولئك الذين يأخذون بوجود اسمى كامل البساطة بالمدى الذى شرحت أنه أنت ، هم صوفيون تماما ومسئولون عن كل النتائج التى استخلصتها من رأيهم . هم باختصار ملحدون دون علم منهم إذ أنه من المسلم به أن لله صفات لا إحاطة لنا بها ، يد أننا ينبغي ألا ننسب إليه الية صفات تتناثر تفرأ مطلقا مع طبيعته العاقلة الجوهرية . ان ذهنا أنفاله ومشاعره وأنكاهه ليست متغيرة ولا متعاقبة ، ذهنا بسيطا ساطعا تاما تابنا شاملا لمو ذهن لا فكر له ولا عقل ولا إرادة ولا إحساس ولا محبة ولا كراهية أو - على الجملة - ليس هو ذهنا بالمره . ومن أسامة استخدام الألفاظ أن نطلع عليه لنياوفى وسنعا كذلك أن نتحدث عن امتداد محدود دون شكل أو عدد دون تأليف .

(فلون) : إننى لأرجوكم أن تأمل فمين تخطن الآن ، فأتت تشرف بلقب الملعن كل أساندة للاهوت الأرتوذكسيين الخلفى الذين - على لأغاب - قد عاجلوا هذا الموضوع ، وسجدت تنسك فى النهاية - وفقا لتقديرك - المؤمن الصحيح الوحيد فى العالم . ولكن إذا

كان عباد الأصنام ملحدين - كما أن هذا قد يصح زعمه - وكذلك اللاهوتيون المسيحيون فاللام تقول الحجة المستندة من الرضاء الكلى لجنس البشرى والى بلنت مبلنأ عطليا من الشجرة .

ولكننى - لعلنى بأن الأسماء والسطات لا تؤثر فىك كثيرا - سأحاول أن أظهر لك - فى قدر أكبر من الوضوح - على مساوى الحقيقة التى احتضنتها ، وسأدلل على أنه ليس ثمة أساس لافتراض خطة العالم تماك فى الذهن الإلهى مشتملة على أفكار متميزة مرتبة ترتيبا مختلفا على نحو ما يرمس مهندس خطة منزل يقصد تنفيذها .

إننى لاسلم أن ليس من الميسور أن نرى ما يحبه من هذا الافتراض سواء حكنا فى هذا الموضوع بالعقل أو بالتجربة وما برحنا مضطرين أن نرقى إلى أعلى لكى نتف على علة هذه العلة التى يثبت أنها شامية وافية .

إذا لم يكن العقل - أهى العقل المجرد المستند من أبحاث قليلة - أشبه بالأخرس بالنظر إلى كل المسائل المتصلة بالعلة والمملول من المحاطرة - على الأقل - لإعلان هذه الجملة . إن عالما عقليا أو عالم أفكار يتطلب علة مئيا يتطلب عالم مادى أو عالم موضوعات ، وما دام مئائين فى ترتيبهما وجب أن يتطلبا علة مماثلة ؛ إذ ما الذى قد يؤدى فى هذا الموضوع إلى نتيجة أو استدلال مخالف ؟ فهما متشابهان تشابها تاما من وجهة نظر مجردة ، وليس ثمة إشكال بصحب الافتراض وليس مشكرا بينها .

ثم إذا أردنا بكل قوة أن نحمل التجربة على إصدار حكم - حتى فى هذه الموضوعات التى تقع خارج دائرتها - فلن يصح أن تدرك أى

اختلاف مادى فى هذه الناحية بين هذين العلمين من الدوام بل نجدهما عكسين فيما يمدى عقلاية ومتعبدان فى عملياتهما على عدة متعادلة من اللعل . فمن لدينا نماذج فى صورة مصغرة لكليهما ، فهذهما يده أسدما والجسم النباتى أو الحيوانى يقبض الآخر . فلتحكم التجربة إذن من هذه المينات . ليس ثمة شئ يبدو أدق بالنسبة لعلة من الفكر . ولما كانت هذه اللعل لا تعمل قط على نحو واحد فى شخصين فكذلك لا تجد الية شخصين يفكران تفكيرا متافلا دقيقا بل لا يفكر الشخص نفسه كذلك تفكيرا متافلا تماثلا دقيقا فى فترتين من الزمن مختلفتين . إن اختلافنا فى عمر المرء ، فى استعداد ذهنه ، فى الجو ، فى غذائه ، فى رفقته ، فى عواطفه ، فى أى جزئية من هذه الجزئيات أو غيرها أدق منها كلفة لتبدل فى آلة الفكر القرية ونحس إليها حركات وعمليات مختلفة جدا . وبقدر ما يسنا الحكم تقول إن الحصر والأجسام الحيوانية ليست أدق فى حركاتها وليست تعتمد على تنوع أعظم أو على توافق أغرب بين المتابع والمبايد .

وعلى ذلك فكيف نتفق أقمتا بعدد علة ذلك الموجود الذى نطقه صانع الطبيعة أو بمقتضى مذهبك فى المشبهة العالم المثلث الذى نمسك عليه العالم المادى ؟ اليس لنا أن نقبس ذلك العالم المثلث على عالم مثال آخر أو مبدأ عقل جديد ؟ ولكن إذا تورقنا ولم نعد فلم نذهب بعيدا ؟ لم لا نقف عند العالم المادى ؟ كيف يسنا أن نتفق أنفسنا دون أن نذهب قدما إلى ما لانهاية ؟ وبشكل هذا أى افتناع هنالك فى ذلك

التي هي: لا تترك قصة التخليد في المندى وفيه فليس أكثر
تخليد على شيء منها على موضوعنا الراهن . إذا كان العالم المادي يقوم
على عالم مثالي مشابه له لزم أن يقوم هذا الأخير على آخر وهكذا
بلا نهاية . لقد كان الأنصار إذن لا يندو بالنظر في العالم المادي
الراهن . فافترضنا إياه مشتتاً في حناياه على مبدأ نظامه تذهب حقا
إلى أنه هو الله ، وكلما عجلنا الاقتراب من ذلك الموجود الإلهي كان
ذلك أفضل بكثير . إليك حينما تخطو خطوة واحدة تعدوها النظام
الأرضي فإنك تثير وحسب مواجهة فضولنا من المستحيل إرضاءه .

لن القول بين الأفكار المختلفة التي تولف عقل الموجود الأسمى
تتظم بعضها وبطبيعتها الخاصة هو في الحقيقة حديث حال من المضي
الحقيق . وإذا كان له معنى فإني لأتنبأ أن أهرق لم يكن من الأدراك
العلم أن تقول إن أجواء العالم المادي تتظم بذاتها وبطبيعتها الخاصة .
أمكن أن يكون أسد الرأيين معقولا ولا يكون الآخر كذلك ؟

حقائق لدينا تجربة بأفكار تتظم بذاتها وبدون علة ما معلومة ، يد
أني لو أتيت أن لدينا تجربة أوسع بكثير من مادة تؤدي العلم نفسه
كما في جميع أمثلة التوالد والإنجاب حيث التحليل الدقيق للغة يفوق كل
إدراك بشري . كذلك لدينا تجربة من نظم خاصة بالفكر والمادة ليس
لها نظام . مثل الأولى في الجنون ومثل الثانية في الفساد . فإذن ينبغي
لنا أن نعلن بأن النظام أكرم للوحدة منه للآخرى ؟ وإذا تطلب علة

في كليهما فإذا نجح من مذهبه الذي يحدد من عالم الموضوعات إلى
عالم عاقل من الأفكار ؟ إن الخطوة الأولى التي تقدم عليها نقودنا " قدما
إلى ما شاء الله . لقد كانت حكمة منا أن نحد على أبحاثنا بالعالم الراهن
دون أن نتطرق إلى ما هو أبعد . لن نتوصل بالتسعة إلى أي اقتناع
شاف من هذه التأملات التي تفوق إلى حد عظيم حدود الفهم
البشري الضيقة .

وأنت تعلم يا (كلياتس) أنه كان ما لوفا عند المعاصرين عندما تطلب
علة لظاهرة ما أن يستصغروا بملكانهم أو بالكيمياء الخفية وأن يقولوا
مثلا: إن الحيز يغذي بغضته الفاذية وأن السناكة تسبل بغضتها المسببة
ولكن قد اكتشف أن هذا المذهب لم يكن منهم إلا نظمية للجهل
وأن هؤلاء الفلاسفة - وأن يكونوا أقل صبرية - قالوا - في
الحق - نفس الشيء الذي قاله الشكك أو الوسوسة الذين اعترفوا في
صراحة أنهم لم يعرفوا علة هذه الظواهر . وكذلك عندما يسأل أي
علة تولد النظام في أفكار المجرسود الأسمى ، هل يمكن أن
تظهر لنا أتم المشبه على أي سبب آخر غير أنها ملكة عقلية وأن تلك
هي طبيعة الله .

ولكن لم لا تقنع إجابة كهذه في تفسير نظام العالم دون استعمار
بمفاتيح عاقل ، لم صعب تحديد هذه الإجابة كما تقرر ؟ نقول لحسب أن
ذلك هو طبيعة الموضوعات المادية وأنها مزودة في الأصل بملكة
النظام والتناسيب . هذه طرائق أكثر ضججا ونهجا في الاعتراف بجهلنا

وليس لأحد الفرضين تفوق حقيق على الآخر اللهم إلا الساقع الأعظم
مع تفرعات السوقة .

(كلياتس) : لقد عرضت هذه الحججة بقوة عظيمة وبدون إنك لا تعجز
بالسورة التي يجاب بها عليها .

وحق في الحياة العامة ، إذا عينت علة لآية حادثة قبل من اعتراض
على يا (فيلون) إذا كنت لا أستطيع أن أعين علة تلك العلة وأن أجب
على كل سؤال جديد يمكن أن يثار باستمرار .

وأى فلاسفة يسلم أن يفسدوا مثل هذه القاعدة الصارمة ؟ فلاسفة
يعترفون بأن العلم النهائي مجردة إطلافا ويشيرون بأن أرفع المبادئ
التي يقتضونها بالظواهر لا زالت بالنسبة إليهم في استعصاء تفسيرها
مثل هذه الظواهر عنها بالنسبة إلى السوقة . إن نظام الطبيعة وترتيبها
والتوافق الغريب بين الملل المائية والقائدة الواضحة والمقصود البين لكل
جزء ولكل عضو ، كل هذه تكشف في أنصع لغة عن علة عاقلة أو
صانع عاقل .

إن السماوات والأرض لتجتمع في شهادة واحدة وجودة الطبيعة
تزل بكافئها المتشودة في مدح عاقلها . وأنت وحدك - أو على الأغلب
وحده - تفش هذا التسامع العام . أنت تبادر بشكوك مبينة
ومكابرات واعتراضات ، أنت تسأل ما هي علة هذه العلة ؟ لست أدري
ولا ينبغي أن أدري فذلك امر لا يخصني . لقد وجدت إلها ومعبدا أفضل

بمن . مع أولئك الذين يفلوا أعمق من الحكمة والجرأة بذهيون
إلى أبعد من هذا .

(فيلون) : - لست أدعي أنني أحد هؤلاء ولهذا السبب عني لم
يكن لي قبل أن أحاول الوصول إلى ذلك الحد وساعة عندما أشر
أن لا بد لي في نهاية الأمر أن أقنع بذلك الجواب الذي كنت أقنع به
منذ البداية دون أن أكلف نفسي مشقة أكبر . إذا كنت مارست في
جهل مطبق بالملل وليس بيسر إطلافا أن أقدم تفسيراً لشيء ما طعن
أرى قبل أية فائدة في أن أتحلف لحظة من إشكال قول أنت عنه أنه
لا بد وأن يحل لي في الحال بكل قوته . والخوفان الطليعيين ليسرون تفسيراً
صحيحاً جداً لمثل هذه جزيئة بجل أهم ، وإن لزم أن تظل هذه الملل
في النهاية مستعصية للتفسير استعصاء تاماً . ولكن لا شك أنهم لم يقتضوا
قط بتفسير مطول جوي بمللة جزيئة ليست أوضح تفسيراً من المثلول
نفسه . أن نظاماً مثالياً قد ترتب دون تدبير سابق ليس أخضع للتفسير
من نظام مادي يحقق نظامه عن غير مماثل ، وليس في الافتراض الأخير
إشكال أعظم منه في الافتراض الأول .

من له القدرة على أن يملك زمام المالم
لهبج ويقض في اهتدال على أخت ؟
متذا الذي يستطيع أن يحيل السموات والأراضى
النخبة بجما من نار إلى مواء ؟ وأن
يكون مافلا فى جميع الأمكنة وكافة
الأرمنة ؟ (١)

وإذا كال (توالى) قد ارتأى هذا الاستدلال طبعياً حتى أنه
أجره على لسان (أبيقور) (٢) :

*Quis regere immensi summam, quis habere profundi
Indu mans volidas potis est moderanter habenas ?
Quis pariter celos omnes convertere ? et omnes
Iguibus aetherius terras suffire feracas ?
Omnibus inque locis esse omni tempore praestos ?*
(Lucritius lib. XI. 1094)

(٢) لية إلى أبيقور (٢٤١ - ٢٧٠ ق. م) فيلسوف يوناني ولد على
الأهلب فى ساموس وتلقى فى أثينا لأكسوقراط . اتبع مذهب ديموقريطس . خلاصة
مذهب الانخلان أن الله هو خير البصر الاسمى وينبئ أن نومه هو : دنا للصول عليها
على الانسلق وواء نزوات الخواس . ولكن تلاميذه أساموا بفسير تامله فأفترقوا فى
القدرة الحسية حتى صار اسم الأبيقورى دلالة على السابن السيفر . ومذهب أبيقورس
أساساً لمذهب (لوقريشس) من د طيبة الأسياد . (الترمز)

انفضيل النجاشين

فيلون :- [مثافاً فوره]

ولكن لى أظهره على نقائص أكثر فى مذهب المشية أروجك
أن تستعرض مبادلك من جديد : الملولات المتناظرة تدل على ظل
متناظرة . هذه هى الحجة التجريبية وهى كما تقول أيضاً الحجة اللاهوتية
الروحانية . ومن البقى الآن أنه كلما كانت المعلومات المرئية أكثر تماثلاً
كانت الملل المستدل عليها كذلك وكانت الحجة أقوى . وكل انفصال
فى أى من الجانبين ينقص الرجمان ويجعل التجربة أقل حسماً . وليس
يسمك أن تفك فى المبدأ كما لا ينبى لك أن تبد تناجه .

إن كل الاكتشافات الجديدة فى الفلك ، تلك التى تدل على عظمة
أعمال الطبيعة وروعها المائلين على جميع ثانوية على الله ، وذلك تبعاً
لفذهب الحقن للاعتقاد . ولكن تبعاً لفروضك فى الاعتقاد التجريبي
تنمو هذه الحجج اعترافات وتضى إلى مدى أهد أثر كل تشابه
لمعلومات الفن والابتداع البشرى . إذ إذا كان (لوقريشس) قد
استطاع باتباعه المذهب القديم فى العالم أن يسيب . فيقول :

د بأى عين من عيون العقل استطاع أفلاطون
أن يمسد تركيب عالم بالغ العظم
كهذا العالم ليثبت أن لها بناء وشاده ؟
وبأى أدوات وذخائر ومتشاكل وآلات
وعمال استعان ليطه ليرفع هذا الصرح
الساق ؟ وكيف أمكن الهواء والماء
أن يصير طيعةً سريرةً بين يدي هذا
المهندس ؟ (١)

أقول إذا كان لهذه الحجة قوة فى الصور العابرة فأى قوة أعظم
يلزم أن تكون لها اليوم حيث اقتصت حدود الطبيعة انساباً لا نهاية له
وحيث استكشف لنا مشهد بالغ فى روعته ، ما يبرح من غير العقول
أن تصوغ فكرتها من علة غير محدودة من تجربتنا لغرات التسدير
والاعتراض البشرى الضيقة .

*Quibus enim oculis animi intruere potuisti vester
Plato fabricam illam tanti operis, qua construi
a Deo atque edificari mundum facti ? Quae
molitio ? quae ferramenta ? qui vectes ? quae
machinae ? qui ministri tanti muneris fuerunt ?
quemadmodum autem obedire et arere volentibus
architecti aer, ignis, aqua, terra potuerunt ?*

إن اكتشافات الميكروسكوب كما تكشف عن عالم جديد فى صورة
مصغرة ما فتئت اعترافات عندك وهى جميع هدى . وكلما تقدمنا
بأبحاثنا أن من هذا النوع لازلاً نصل إلى الاستدلال على علة كلية للكل
مختلفة اختلافاً شامساً عن الجنس البشرى أو عن أى موضوع من
التجربة والملاحظة البشرية .
وماذا صاك قاتلاً عن الاكتشافات فى التشريح والكيمياء وعلم
النبات ؟ ...

(كلياتس) : هذه على التأ كيد ليست اعترافات ؟ أنها تكشف
وحسب عن أمثلة جديدة من الفن والابتداع . ولارالت صورة الذهن
منعكسة علينا من موضوعات لا حصر لها .

(فيلون) : أضف ذهننا كالمذهن البشرى .

(كلياتس) : أنا لا أعرف غيره .

(فيلون) : [مصر ؟] .

والأشبه به هو الأمثل .

(كلياتس) : يقيناً

(فيلون) : [وقد بدا عليه الاجماع والفرح]

والآن يا (كلياتس) لاحظ النتائج :-

أولاً : هذا المنهج فى الاستدلال فرض كل دعوى من الاعتامى
فى أية صفة من صفات الله . إذ لا كانت العلة ينهى وحسب أن تكون

متشابهة مع المعلول ؟ ولما كان المعلول - بقدر ما يقع تحت معرفتنا - ليس لا متناهياً ، فإذا يكون لنا من ادعاءات على افتراضاتك عندما تتحل تلك الصفة للموجود الإلهي ؟ ولكنك ستظل مصراً على أننا بإعادة عن كل مشابهة للمخلوقات البشرية ، بل إن أكثر الفروض تصفاً وفي حين الوقت نؤمن كل الأدلة على وجوده .

ثانياً : - لاحظ لك في نظريتك أن نسب الكمال قد حتى في قدرته المتناهية أو في اعتراضه منها عن كل زلة وخطأ وتخط في أعماله . هناك في أعمال الطبيعة اشكالات كثيرة هيبة التفسير يسأل سألها لو سلنا صانع كامل بدليل عليه بدليل قليل وتصير هذه الاشكالات قريبة من قدرة ضيقة لإنسان لا يسهل تتع علاقات لا متناهية . ولكن - فيما لننتجك - فندبر هذه الاشكالات كلها حقيقة وربما أصردنا على القول بأنها أمثلة جديدة على مشابهة للفن والابتداع البشري . فبعض عليك - على الأقل - أن تعلم أنه من المستحيل علينا أن نذكر من نظراتنا المحدودة ما إذا كان هذا المذهب مشتملاً على أغلاط عظيمة أو مستهلاً لأي أطراء كبير عند مقارنته بمذاهب أخرى ممكنة على وواقعة . هل في وسع قلاح إذا ثبتت عليه (الانادة) أن يقول إن تلك القصيدة خالية من السطو خطأ مطلقاً أو يترها منزلتها الخاصة بين منتجات القطعة البشرية ، هذا القلاح الذي لم يهدد قط أي إنتاج آخر ؟ ولكن إذا كان العالم إنتاجاً بالغ الكمال وجب أن يظل مفتخراً إلى الأبد . إذا كان في الوسخ أن نصيف بحق كل روائع العمل إلى

العامل . إذا استعرضنا سفينة فأية فكرة رفيعة يلزم أن نكونها عن عبقرية التجار الذي بنى مثل هذه الآلة المصنوعة المنيعة الجميلة ؟ وأية دمهضة يلزم أن نستعرضها عندما صانها غيباً يترك الآخرين وينقل عن من قد تقدم بالتدرج بعد أن مر بصور طولية متعاقبة وبعد محاولات عديدة وأخطاء وتصويبات ومشاورات ومجادلات ؟

لا بد وأن عوالم جديدة قد لفتت ودرجت منذ الأزل قبل ظهور هذا النظام واستند الكثير من الفكدح والمحاولات الفاشلة وأطرد - في طء - إصلاح متصل لكن صناعة العالم خلال عصور لا نهاية لها . ففي مثل هذه الموضوعات منذ الذي يستطيع أن يشكك بإمكان الرجوع بين عدد ساعد من الفروض التي يمكن افتراضها وبين عدد أعظم منها يمكن تنجيه ؟

« ويضاف (يلون) قوله : »

وأى ظلي لحية يمكنك أن تستخلصه من فرضك لتدال على وحدة الله ؟

إن هددنا عظيماً من الناس بمتعمون لبناء منزل أو سفينة ، في تفيد مدينة أو في تكوير جمهورية ، فليمن لايمانون ألهة عديدون على ابتداع عالم وتنظيمه ؟ هذه وحسب مشابهة أعظم للفنون البشرية ؟ إذ يقسم العمل بين عديدين يمكن أن نجد بقدر عظيم صفات كل منهم وتخصص من تلك القوة والمعرفة المنبصلة التي يلزم أن نقتضيها في إله واحد والتي

يمكن - فيما لك - أن تبين لحسب على توهين الدليل على وجوده وإذا كان ثمة مخلوقات شريرة حقاً كالإنسان يمكن أن تمتد في كثير من الأحيان على تنسيق خطة وتنفيذها ليس الأخرى أن يكون ذلك أمر أولئك الآلهة أو الفياطين الذين يستطيع أن تعرض فيهم مراتب عديدة أكل ؟

إن الافاضة في المال دون ما ضرورة يتعارض حقاً مع الفلسفة السائدة ولكن هذا المبدأ لا ينطبق على الحالة الراضية . إذا إذا ثبت ثبوتاً قسلاً بالدليل من نظريتك أن ثمة الها واحداً حاصل على كل صفة لازمة لإنتاج العالم لا احتجنا إلى - وهذا ما أسلم به وإن يكن باطلاً - افتراض وجود إله آخر . يذ أنه لا يزال موضع التساؤل ما إذا كانت الصفات جميعاً متحدة في ذات واحدة أو موزعة بين موجودات عديدة مستقلة . وبأية ظواهر في الطبيعة نستطيع ادعاء الفصل في هذا الزواج ؟ لدينا نرى جسماً مرتقياً في كفة ميزان تتأكد من وجود وزن ساو - وإن يكن عجوباً عن النظر - يمدله في الكفة الأخرى ؛ ولكن لا يزال هناك مجال للشك فيما إذا كان ذلك الوزن يحمل أجسام عديدة متميزة أو كتلة واحدة متحدة متمسكة . وإذا كان الوزن المستازم يفتوق إلى حد كبير أي شيء رأينا مقترناً في أي جسم مفرد لكان الافتراض الأول أقرب إلى الرجحان والطبيعة . إن موجوداً ما تلا عاقله من سعة القوة والقدرة ما هو ضروري لإنتاج العالم ، أو إذا تعدنا في لغة الفلسفة القديمة لقلنا إن حيواناً بالغ الضخامة ليفوق كل مماثلة إلى وكل فهم .

ولكن يا (كلياثس) أن الناس قانون ومحددون جنسهم بالتواء ، وهذا أمر مشترك بين المخلوقات الحية جميعاً . إن (ملتن) يقول . أن الجنين الطبيعي - الذكر والأنثى - يبدآن العالم بالحياة ، فلم يلزم أن تقضى هذه الملازمة الباعية في كتيبات حوريتها عن أولئك الآلهة العديدين المحدودين ؟ أنظر أن في هذا لمراد إلى بحث مفصلاً الآلهة في الأرمية القديمة .

ولم لا تندو مشبها كاملاً ؟ لم لا تزعم أن الله أو الآلهة متجسدة لها عيون وأذن وفم وآذان الخ ؟ لقد ذهب أبقوروس إلى أنه ليس ثمة إنسان قد رأى الفشل اللهم إلا في شكل بشري . وهذه الحجة التي أفاض (شيشرون) بحق - في الشكخ منها تقنو ، فيما لك ، حجة فلسفية متينة .

وفي اختصار يا (كلياثس) إن من ينبع فرضك رب كان خليفاً أن يزعم أو يشكك أن العالم قد نشأ في وقتاً ما من شيء شبيه بالتدبير ولكنه لا يستطيع - بعد هذا الموقف - أن يتحقق من ملازمة واحدة ، ويرتك بعد ذلك وقد أطلق اللتان للبخلة والفرض بضمان كل نقطة من نقطة لاهوته ، وينبني له أن يعلم أن هذا العالم غارق في الزوال والنقص إذا قورن بمستوى أرفع وكان وحسب المحاولة الفضية الأولى لإله طفل قد تحل عنها بعد ذلك خيلاً من هذه الأهرج . إنه وحسب لعل إله تابع مان وهو هدف سخرية أقطابه وهو نتاج أول قوة دامية تلقاها من إله هوم يبلغ من العمر والحرف أرذلها ودرج على المخاطرات حتى محامه . ولك الحق يا (ددميان) أن تبدي حلالم الفرح إزاء هذه

الافتراضات الغريبة . يد أنها وآلاما مثلها ، افتراضات (كلياتس) وليس لي فتد اللحظة التي نفترض فيها أن الله متناه تفصح السبل لهذه الافتراضات جميعاً . ولست أستطيع من جانبي أن أرى ما إذا كان مذهب لاهوت وحشي عتق مفصلاً - على أية حال - على لاهوته أملاً .

(كلياتس) : - [سامتا]

إنني لأبرأ قطعاً من هذه الافتراضات ومهما يكن من شيء فهي لا تنال فرع ما وخاصة عند ما تعرض تلك الطريقة الخائفة التي عرضتها بها والأمور على العكس فهي تعدّ لذة عند ما أرى أنك وقد أطلقت الثمن لخيالك إلى أقصى درجة لم تتخلص البتة من فرض هي التدبير في العالم ، بل اضطرت في كل موطن أن تستعين به . إنني لأتمسك تمسكاً راسخاً بهذا الإذعان واعتبره دعامة كافية للدين

الفصل السادس

(ديمان) : حقاً يلزم أن يكون العالم مصنعا مثيلاً أمكن تشييده على هذا الأساس المرتجى ، فإذا يوزننا اليقين فيها إذا كان هناك إله أو عدة آلهة تدبر لم . وجودنا ، كالمين أو ناصين ، ثابتهن أو في القشة ، فابن أو أحياء فأى لغة أو إيمان يمكن أن نضحه فهم ، أى تقان في الإخلاص وتمتد توجه به إليهم ؟ أى توفير أو طاعة تخصم بها ؟ تفقد هذه النظرية مدعمة الثابتة اعداما تما في كل أغراض الحياة وحتى بالنظر إلى النتائج النظرية ، فإن عدم يقينها - بما لك - يجعلها مفتقرة افتقاراً تاماً إلى التأكيد والاقناع

(فيلون) : ولكن أريد في تبيان افتقارها إلى الاقناع ثمة فرص أخرى من حيث يكسب لاحالة سمعة من الرجحان من منبج الاستدلال الذي أصر عليه (كلياتس) كثيراً ، ألا وهو أن المعلومات المتألفة نشأ من حال متألّفة . فهو يفترض هذا المبدأ دعامة كل دين ، ولكن ثمة مبدأ آخر من نوعه لا يقل يقيناً ومستمدة من مصدر التجربة عينه ، ألا وهو أنه حينما لوحظ تقابله بين ملابسات عديدة معروفة لزم أن نجد أيضاً بين الملابسات المجهولة . وعلى ذلك فعندما نرى أطراف يدين بشري نستخلص أنها مصحوبة كذلك برأس بشرية وإن كانت محجوبة عنا .

وثمة ميزات أخرى عديدة في النظرية الأولى أيضاً حيث أنها لرجال اللاهوت القديس ألا وهو : أن ليس ثمة شيء أشد تناقضاً مع تصوراتهم جميعاً - لأنه ليس ثمة شيء أشد تناقضاً مع التجربة العامة - من ذهن بلا بدن ، من جوهر روي عض لم يقع تحت حواسهم أو إحاسنهم ولم يلاحظوا له مثلاً واحداً في الطبيعة بأسرها . لقد عرفوا النفس والجسم لأنهم شعروا بهما وكذلك عرفوا فيها على النحو عينه ، نظاماً وتربطاً وتعضوفاً أو آلة باطنية ، ولم يكن عفر من أن يبدو من المقبول نفس هذه التجربة إلى العالم وافترض الدهن والجسم متعاصرين . ولكليهما نظام وترتيب متطابق فيه وغير متفكرين عنه . ههنا من ثم يا (كلياتس) نوع جديد من مذهب المشبهة نستطيع أن تدبره ، ونظرية لا تبدو قابلة لأية اشكالات كبيرة . لاشك أنك تقسم على التفرضات فلا تجد مشقة ما في افتراض أن لجسم حيوان - في الأصل ومن ذاته أو من حال بجهولة - نظاماً وتعضوفاً أكثر مما تجد في افتراض نظم مشابه بعزى للدهن . ولكن قد يرى البعض أنه ينبغي لنا ألا ننقل إضالاً عما تفترض السوق وهو أن الجسم والذهن ينبغي أن يصحب أحدهما الآخر على الدوام ، مادام هذا الحكم متبنياً على التجربة السوقية وهي المرشد الوحيد الذي ترى أنت اتباعه في هذه الأبحاث اللاهوتية جميعاً . وإذا كنت زعم أن تجربتنا المحدودة هي مقياس صير عدل لنحكم به على مدى الطبيعة الذي لاحد له فالك انتنلي تخلياً تاماً دن فرضك الخاص وينتم عليك حينئذ أن تؤثر صويتنا - كما تدعوها - ونسلم بعدم فهم مطلق للطبيعة الإلهية .

وعلى ذلك إذا رأينا من فرجة في حائط جزء أصغراً من الشمس غلصنا بأنه إذا انزاحت الحائط استطلعت أن نرى الجسم كله .

والآن إذا استعرضنا العالم - بقدر ما يقع تحت معرفتنا - نرى تشابهاً عظيماً يجري بينه وبين حيوان أو جسم عضوي ويبدو متاراً يبدأ مشابهاً للحياة والحركة . ودورة متصلة للساعة فيه لا يتولد عنها خلل ما ، وفساد متصل في كل جزء يمرض عنه - دون انقطاع - تعاون وثيق تدرك في جواب النظام بنامه . وكل جزء أو عضو يعمل في إجاز وظائفه الخاصة لحفظ بقائه وحفظ بقائه الكل .

وعلى ذلك نخلص بأن العالم حيوان والإله نفس الحيوان تنيره وتثار به . وأنت يا (كلياتس) قد بلغت حداً عظيماً من المعرفة بممالك تدهش لهذا الرأي الذي - كما تعلم - قد أخذ به - على الأغلب - كل المؤمنين في العصور القديمة ويطلب برجه خاص في أحاديثهم واستدلالاتهم . إذ وإن يكن الفلاسفة القديس يستدلون أحياناً من السبل الغائبة كالوكانوا يحسبون العالم للعمل الإنسانى قد . يد أنه يبدو بالآخرى أن تصويرهم المفضل هو اعتبار العالم جسماً له يجعله تكوينه العضوي مرموساً له . ويلزم أن نقر بأنك أنه كما أن السلام أحييه بجسم بشري منه بأعمال الفن والابتداع البشري ، فكذلك - إذا أتبع لتفكيرنا المحدود أن يستطع على نحو من الصحة على الطبيعة بأسرها - يبدو الاستدلال أحق في جانب النظرية القديمة منه في جانب النظرية الحديثة .

(كليايش): أنا أعلم بأن هذه النظرية لم تكن لي من قبل قط مع أنها نظرية طبيعية على القريب، ولست أستطيع - عن لحم وتفكير نصيرين - أن أسوق - في الحال - أي رأى جديدها.

(فيلون): حقا، أنت كثير الارتياح، فإذا كان لي أن أخلص أي مذهب من مذاهبك لما كنت أقبض بنصف ذلك الحذر والحفظ في المبادرة بالاعتراضات والاشكالات عليه، وأيا كان فإذا من ذلك شيء ما فلا مفر من النظر فيه حين نمرضه.

(كليايش): لم إذن يدولى أن العالم وإن يكن يشبه في كثير من الملاحظات جسما حيوانيا إلا أن التمثيل ناقص أيضا في كثير من الملاحظات البالغة أقصى حد من المادية: لا أحد من أعضاء الحس أو دعامته الفكر أو الجمل بأصل صحيح للحركة والفعل. وبالأجل إن العالم يبدو أشبه بجسم نباتي منه جسم حيواني ومن ثم يفتدو استدلالك فيما يخص نفس العالم استدلالا عتيا.

ثم إن نظريتي تبدو منطوية على سرمدية للعالم، وهذا مبدأ أظن أن في الوسع دحضه بأقوى الاستدلالات والاختلالات. وسأفصح لهذا النرض حجة أعتقد أن أحدا من الكتاب لم يثبت عليها، فأولئك الذين يستدلون من المصدر الأخير للفنون والعلوم قد يدحض استدلالهم - وإن لم توره القوة - باعتبارات مستمدة من طبيعة المجتمع البشري، وهو في ثورة متصلة مع الجهل والمعرفة، بين الحرية

والعبودية، بين النقي والفقير، حتى أنه يستحيل علينا - من تجربتنا المحدودة - أن نتنبأ في استيقاق بالمصادفات التي يمكن توقعها أو التي لا يمكن توقعها. ويبدو أن العلم والتاريخ القديين كانا في خطر عظيم من الهلاك التام بعد طرفان الأمم البربرية، ولو استمرت هذه التأثيرات مدى أطول قليلا أو كانت أشد ما كانت عليه لما كان في وسعنا - على الأرجح - أن نعرف الآن ما جرى في العالم لقرون قديمة قليلا. أسيح ما لم يكن الفضل خرافة البابوات الذين حافظوا على القليل من الرطانة اللائقة ليدعوا مطهر كنيسة قديمة عالمية، لكان حتما فقدان هذه الفئة، ولكن العالم العريق - في هذه الحالة - بربريا بأجمعه، ولما كان له استعداد صالح لتقبل الفئة والصلم الاغريقي اللذين حملوا اليه بعد نهب القسطنطينية. وحسن خيا ضوه العلم كانت الفنون الآلية نفسها خليقة بأن تتدثر اندثاراً بالفا. ومن اليسير أن نتخيل أن الخرافة أو التقاليد قد جعلت لها أصلا متأخرا عن أصلها الحقيقي. ومن ثم فهذه الحجة السوقية ضد سرمدية العالم تدو على شيء من الخطر. ولكن هنا ظهر دعامه لحجة أفضل. لقد كان (فوكوس) أول من استحضر أشجار الكوز من آسيا إلى أوروبا ومع ذلك فذلك الشجرة تصيب خصيا طليا في كثير من الأجواء الأوروبية حتى أنها تنمو في العابات دون زراعة. إن من الممكن أن أحدا من الأوروبيين لم يجر آسيا منذ الأزل ولم يفكر في استخدام مثل هذه الفاكهة اللذيذة إلى بلده؟ أو، إذا كانت الشجرة قد استخدمت مرة واقشرت فكيف يمكن بعد ذلك أن تفرض؟ قد تنهض الامبراطوريات وتتبدل وقد تتعاقب الحرية والعبودية واحدة بعد الأخرى وقد يتراى الجهل والمعرفة، ولكن

ستظل شجرة الكوز في غابات اليونان وآسيا وإيطاليا، ولن تتأثر قد بثورات المجتمع البشري.

لم يحض ألفا عام منذ استخدمت الكروم إلى فرنسا ومع هذا فليس ثمة مناخ في العالم أصلح لها من مناخ فرنسا. ولم يحض ثلاثة قرون منذ أن هرفت الجياد والبقر والخراف والخنازير والكلاب والقط في أمريكا. ومن الممكن أنه في غضون ثورات أزل بأكله لم يظهر قط (كولومبوس) يتيح الاتصال بين أوروبا وتلك القارة؟ كذلك نستطيع أن نتخيل أن الناس جميعا قد يكونون ارتدوا الجوارب منذ عشرة آلاف عام ولم يكن لديهم البتة احساس بمعهم يفكرون في أربعة ربطها. كل هؤلاء تبدو أدلة مقنعة على شباب العالم، وبالأحرى طفولته، ذلك العالم اللبني على من مبادئ أكثر اطرادا وثباتا من المبادئ التي تصمم المجتمع البشري وكسيره.

ليس شيء أقل من انقباض تام للعناصر، يهلك كل الحيوانات والنباتات الأوروبية التي جدها الآن في العالم القري.

(فيلون): وأية حجة لك على هذا الانقباض؟ إن الأدلة القوية - التي تكاد لا تقبل التلغ - على أن كل جزء من هذه الكرة قد استمر حقا عديدة منطوية تامة بالماء، هذه الأدلة يمكن أن نجدتها على الأرض كلها. وإن يسكن من المفترض أن النظام غير متصل عن المادة ومنطوية فيها إلا أن المادة قد تنحصر للكثير من التقلبات العظيمة

خلال جهود لانهاية لها في الزمان الأزلي. وإن التغيرات المتعسلة التي يخضع لها كل جزء فيها تبدو موطدة لبعض التحولات العامة وإن يكن من المستحيل في عين الوقت أن كل التغيرات وضروب الفساد التي قيضت لنا تجربة بها من هي إلا عرات من حالة للنظام إلى حالة أخرى يولن يسع المادة قط أن تظل في تدوير واختلاط تام. وإن ما نراهه في الأجزاء يمكننا أن ننقله إلى الكل، وهذا - على الأقل - منبج الاستدلال الذي نقيم عليه نظريتنا كلها. وإذا كنت منظر أن أذود عن أي مذهب خاص من هذا القبيل - وليس هذا ما سأفعله قط طامعا - فليست أقدر أحدا من المذاهب أصوب من ذلك الذي ينسب مبدأ للنظام لازما للعالم لزوما أزليا - وإن يكن مصحوبا بتقلبات وتحولات عظيمة متصلة. هذا يحمل من فوره كل الاشكالات، وإذا كان الحل - ليكون عاما جدا - ليس مستكلا ولا مقنعا على وجه تام فهو - على الأقل - نظرية يلزم لنا أن نستعين بها أجلا أو عاجلا أي كان المذهب الذي نشتقه. كيف يمكن للأشياء أن تكون على ما هي عليه إن لم يكن هناك في الفكر أو في المادة مبدأ للنظام أصلي منطوي؟ ويستوى لدينا أن نحض أحدا منها بالتفصيل على الآخر وليس للصدفة موضع في أي فرض شك أو دين. كل شيء تحكمه - على التأكيد - قوانين ثابتة لا تتغيرق. وإذا انكشف لنا سحر الأشياء الكامن لكان في وسعنا أن نكشف مشيها لسنا نستطيع أن يكون لنا الآن فكرة عنه. فبدلا من أن نمجب نظام الموضوعات الطبيعية يعني لنا أن نرى بجلاء أنه كان من

الاستحالة المطلقة. أمر حتمي من حيثها أن تتلأب
سند آخر.

وإذا أحس شخص ميلا إلى إحياء اللاهوت الوثني القديم الذي
يذهب - كما تعلم من (هريود) - إلى أن هذه الكرة قد حكمها
ثلاثون ألفا من الآلهة نفاوا من قوى الطبيعة مجهولة ، وقد نتج
بالطبع يا (كلياتس) بأننا لا نجني شيئا من هذا الفرض وأنه يستوي
في سهوكم مع افتراض كل الناس حيوانات - أعني موجودات
أكثر عددا وأقل كالا - أدفست اندفاعا مباشرا من أصل مماثل.
ادفع بالاستدلال نفسه خطوة إلى الأمام ، تجريدا أن مجتمعنا حاشدا
من الآلهة يسوي في تفسيره مع إله واحد كل شيء في ذاته قوى
المجتمع بأسره وبكامله وأنه يجب عليك أن تعلم بأن كل هذه المذاهب
من شيعة وتعددية واعتقادية هي عن حد سواء ، وليس لأحد منها
ميزات على الآخر ، ومن ثم يمكنك أن تعلم بطلان مبادئك .

الفصل السابع

(فيلون) : [سأنا ندره .

ولكن حين نفحص المذهب القديم في نفس العالم تدهني بخاة
فكرة جديدة إذا كانت حقا كانت ثقل استدلالك كله بل
ونهدم كذلك استدلالك الأولي التي وضعت فيها ثقتك .

إذا كان العالم أشبه بالأجسام الخيرية والذات من بأعمال الفن
البشرى لكان الأرجح أن علمه أشبه بقة الأولى منها بقة الثانية ،
وينبغي بالأحرى أن ينسب أصلا إلى التواله والإنبات منه إلى
المقل والتدبير . ومن ثم فينتجك - حتى يقتضى مبادئك الخاصة -
عرجاء ناقصة .

(ديان) : أرى أنك إن توسع في هذه الحجة شيئا ما إذا أتت
لأهمها فيما صحبها على هذا النحو الموجز الذي هربت به عنها .

(فيلون) : إن صديقتي (كلياتس) يزعم - كما سمعت - أنه
ما دام ليس ثمة علاقة من الواقع لا يمكن أن ندال عليها إلا بالتجربة
فإن التدايل على وجود الله لا يكون طريقة أخرى . وهو يقول إن
العالم يشبه أعمال الابتداع البشرى ومن ثم فلهذا يلزم أيضا أن تشبه علة

بانتقاله من شمس إلى شمس ومن نجم إلى آخر يتدفع في النهاية إلى عناصر
غير مشكلة تحوط بالعالم كل مكان ويبت في الحال عالما جديدا .

أو لأنواع في التعبير - إذ لا أرى لهذا قاعدة أخرى - يمكننا
أن نفترض هذا العالم حيوانا والنجم المذهب هو بضة هذا الحيوان
وضمها على نحو مناضح الطعام يعنتها على الرمال ، وتنفس البضة -
دون عناية أخرى من الحيوان - وتولد حيوانا جديدا ، كذلك ...

(ديان) : أنا أفهمك : ولكن أي افتراضات وحشية
اعتسافية هذه ؟ أي بيانات لديك عن مثل هذه النتائج الشاذة ؟ وهل
الفتاب العظيم المخليل بين العالم وبين نبات أو حيوان يصحكي لإقامة
الاستدلال عنه صدهما ؟ هل ينبغي للوضوحات المختلفة بوجه عام
اختلافا شامسا أن تكون معكأ بعضها لبعض الآخر ؟

(فيلون) : [سأنا]

صحيح ! هذا هو الموضوع الذي ما برحت ثابا عليه . لقد بيئت
أيضا أنا ليس لدينا بيانات ما لإقامة أي نظام لهذه الحقيقة . إن تجربتنا
ناقصة - في ذاتها - تقصا بالفا وهي محدودة في مداها وفي استمرارها
ولا يمكننا أن تزودنا بشيكن راجع عن الأشياء جميعا . ولكن إذا
وجب علينا أن نتكلم على فرض ما يباى قاعدة - أتوسل إليك -
ينبغي لنا أن نحدد اعتبارنا ؟ أتمه قاعدة أخرى اللهم الا هذا
الفتاب العظيم بين الأشياء المقارنة ؟ أليس النبات والحيوان الناضج من

الآخر . هنا يمكننا أن نلاحظ أن عمل جزء واحد صغير جدا في الطبيعة
- أعني الإنسان - على جزء آخر صغير جدا - أي تلك المادحة غير
الحية التي تقع في متواله - هو القاعدة التي يحكمها (كلياتس) على
أصل الكل ، وهو يقيس الموضوعات التي يحتل تناسب بينها اختلافا
شامسا بمحك فردى واحد . ولكن لكي تسمى كل الافتراضات الناجمة
عن هذا الموضوع أقر أن هناك أجواء في العالم - فضلا عن آلات
الابتكار البشرى - تحصل تشابها أعظم لتكوين العالم ومن ثم فهي
تزودنا بشيكن أفضل يتصل بالأصل الكلي لهذا النظام . هذه الأجواء
هي الحيوانات والنباتات والعالم يساطة أشبه بحيوان أو نبات منه بسادة
أو بتول . ومن ثم فلهذا - على الأرجح - تشبه علة لأول وهلة
الأول هي التواله والإنبات . وعلى ذلك يمكننا أن نخلص بأن علة العالم
هي شيء يشبه أو يماثل التواله أو الإنبات .

(ديان) : ولكن كيف يتصور أن العالم يمكن أن ينشأ من
شيء ما مماثل للتواله أو الإنبات ؟

(فيلون) : هذا أمر سهل جدا . فمثلا تنثر شجرة بذرتها في الحقول
المجاورة وتولد أشجارا أخرى ينتج هذا النبات العظيم - أعني العالم
أو هذا النظام الكوكبي - من نفسه بذورا معينة «تنثراها في أمبولي
المحيطه تبت هوالم جديدة .

فمثلا نحم شئ شئ هو بذرة عالم وبعد أن يتضح نضوجا تاما

إنبات أو توالد أعظم شها بالعالم من أية آلة صناعية تنشأ من العقل والتدبير ؟

(دميان) : ولكن ماهما ذاك الآيات والتوالد اللذان تحدثت عنهما ؟ هل نستطيع أن نقرر عليهما وتشرح هذا البناء الباطن الدقيق الذي تعتمدان عليه ؟

(فيلون) : بقدر ما يستطيع (كلياتش) أن يفسر عمليات العقل - على الأقل - أو يشرح ذلك التركيب الباطن الذي تعتمد عليه . ولكنني دون أي بحث من البحوث الناضجة أبعد أتى عند ما أرى حيرانا أستخلص أنه نشأ من توالد ويحدث هذا بنفس القدر العظيم من اليقين الذي نستخلص به أن مولا شيد بالرسم . هذه الكليات من توالد وعقل تدل وحسب عن قوى ومخالفات معينة في الطبيعة آثارها معلومة ولكن جوهرها غير مفهوم ، وليس لواحد من هذه المبادئ ميزة على الآخر تجعل منه معياراً للطبيعة بأسرها .

والحق يا (دميان) قد يكون من المقول أن نتوقع أنه كلما كانت ظراتنا التي نستخدمها من الأشياء أوسع كانت هدايتنا في نتائجنا في مثل هذه الموضوعات الحارة الزائفة أفضل . في هذا الركن الضئيل من العالم مبادئ أربع هي العقل والفرية والتوالد والإنبات ، يشبه كل منها الآخر وهي على لمطولات متعاقبة . وأي عدد من المبادئ الأخرى - قد نقرضه - في امتداد العالم الشاسع وتنوعه إذا كان

لنا أن نرحل من تركيب إلى آخر لفحص كل جزء من هذا المصنع الضخم ؟ وأي واحد من هذه المبادئ الأربع السالف ذكرها - ومئات أخرى في متناول ملكاتنا - قد يودنا نظرية تحكم بها كل أصل العالم ومن التحزب الواضح المسرف أن تقصر نظرتنا قصراً تاماً على ذلك المبدأ الذي تعمل به أذهاننا . وإذا كان ذلك المبدأ أعقل في ذلك الموطن لكان هذا التحزب معقولاً إلى حد ما ، ولكن العقل في تركيبه وبنية الباطنة يطلع - حقاً - في مسألة معرفتنا له مبلغ الفريرة أو الإنبات ؛ ودعى لم تكن تلك الكلمة المجهمة غير المتحدة أعني الطبيعة التي يرد السذج إليها كل شيء ، ربما لم تكن أيضاً في قرارها أشد استعصاء على التفسير . إن آثار هذه المبادئ كلها مسروقة لنا من التجربة ولكن المبادئ عينها وطريقة عملها مجهولة جهلاً تاماً ، وليس القول بأن العالم نشأ بالإنبات من بذرة ترها عالم آخر بأقل موافقة واتساق مع التجربة من القول بأنه نشأ من عقل أو ابتداء إلى مقتضى المعنى الذي يفهمه عليه (كلياتش) .

(دميان) : ولكنني أظن أن العالم إذا كان كيفية نباتية وكان في مقدوره أن يبدد بذور هوالم جديدة في ميول لا تناميكية لكانت هذه القوة حجة ثانوية على التدبير في صانه . وإلا فإن ابن تنشأ مثل هذه المسألة بالغة الروعة إن لم يكن من التدبير ، أو كيف يمكن لنظام أن ينشأ من شيء ما لا يدرك ذلك النظام الذي يفهمه ؟

(فيلون) : لا يعوزك إلا أن تدبر النظر حولك حتى تقتنع أنت

نفسك بهذا السؤال إن الشجرة لتضع النظام والتهضون للشجرة التي تثبت متبادون أن تعرف النظام ، وعلى البحر نفسه يفعل الحيوان مع وليده والماء مع عشه . وإن الأمثلة من هذا النوع لاكثر في تعددها في العالم من الأمثلة على النظام الذي ينشأ من العقل والابتداء . وإن القول بأن هذا النظام كله ينجم بصفة نباتية عن التدرج لموافقنا لشيء الذي تقابل عنه ، وكذلك ليس يمكن الاستيقاق من هذه النقطة اللهم إلا بالتدليل تدليلاً أولياً على أن النظام بطبيعته مرتبط ارتباطاً لا فكاك عنه بالفكر وأنه لا يمكنه قط - من نفسه أو من مبادئه أصيلة مجهولة - أن ينسب إلى المادة .

ولكن يا (دميان) رد على هذا أن هذا الاعتراض الذي تحيده لا يمكن قط (لكلياتش) أن ينقض به دون أن يتخلل من دفاع قد واجه به من قبل أحد اعتراضات فغندما بحثت في حق ذلك العقل والنكاح الإسمى الذي يورث عليه في كل شيء ذكر لي أن استحالة استيفاء مثل هذه الأبحاث لا يمكن أن توخذ البتة على أنها اعتراض في أي صرب من صروب الفلسفة . إنه يقول ينبغي أن نتوقف في مكان ما وليس في متناول القدرة البشرية قط أن تفسر الملل النباتية أو تبين الارتباطات الأخيرة بين الموضوعات . وبكيفية أن تكون الخطوات - هل مدى سيرنا بها - مدعومة بالتجربة والملاحظة . والأول من غير المذكور أننا قد جربنا أن الإنبات والتوالد - شأنهما شأن العقل - مما من مبادئ النظام في الطبيعة . فإذا كنت أرتكر نذهي في بدء الخليقة على الأولين

مفضلين على الأخير فهذا أمر لي الحيرة فيه . يبدو أن الموضوع تام النصف ولكن عندما يسألني (كلياتش) عن علة ملكتي التوالدية النباتية العظيمة فيقول لي أيضاً إن أسأله عن علة ميذه العقل العظيم . هذه المسائل قد اتفقتا أن ننسبها من جانبيها ، وانتمانه في الطرف الحاضر - هو على الأخص - أن يلامر هذا الانعاق . لو حكمتنا بتجربتنا الناقصة لكان للتوالد بعض الميزات على العقل ، إذاً نشاهد الأخير - كل يوم - ينشأ من الأول ، ولنا شاهد الأول - قط - ينشأ من الأخير .

إنني لأصرح إليك أن تقارن نتائجك على الجانبين . إنني لأقول إن العالم يشبه حيواناً ومن ثم فهو حيوان ومن ثم قد نشأ من التوالد . وإنني لأعترف أن الخطئ واسعة يد أن ثمة مظهر أفضلاً للتوالد في كل خطوة . و (كلياتش) يقول إن العالم يشبه آلة ومن ثم فهو آلة ومن ثم قد نشأ من التدبير . والخطئ هنا متسعة كذلك والمائلة أقل قوة . وإذا ادعى البعض بفرضى خطوة إلى الأمام واستدل على التدبير أو العقل من مبدأ التوالد العظيم الذي أقرره لكان لي بسند أفضل أن أستعمل الحرية عينها لأدفع بفرصه قدما وأستدل على توالده إلى أو نفاة إلهية من مبدئه من العقل . لدى - على الأقل - بعض ظل وامن من التجربة هو غاية ما يعني أن أبلعه في الموضوع الخلل . فمن الملحوظ في أمثلة لأحصر لها أن العقل ينشأ من مبدأ التوالد وليس بشأ قط من أي مبدأ آخر . لقد أثر هذا التماثل في (هوبود) وكل

رجال الأساطير القدامى تأثيراً بالغاً حتى أنهم قد فسروا أصل الطبيعة تفسيراً كلياً من موك حوران أو من جماع . وأقلاطون أيضاً - بقدر فهمنا له - يبدو أنه قد أثر ما يقرب من هذا التصور في (طيماس) (١).

ويزعم البراهمة أن العالم قد نشأ من عنكوت لانهاى بخول من حشاه هذه الكتلة المعتمة ، شتبا وهدمها كلها بعد ذلك أو هدم أى جزء مما بالتمام ثانية ، وإحالة إلى جوهره الخاص . وهنا ضرب من ضروب هذه الخليفة يظهر لنا اعتنا على السحر إذ أن العنكوت الحيوان مثل حقير لا يعمل قط أن تتحد عملياته فوجدنا العالم برمته . ولكن ما ربح - هنا - ضرب جديد من المماثلة حتى في كوكبنا وإذا كان هنالك كوكب تقطعه بكافته عنك - وإذا تمكن جداً - لظهر هذا الاستدلال مثالك طليماً لا بدحس ، مثله في ذلك مثل ذلك الاستدلال الذى ينسب أصل الأشياء جميعاً - في كوكبنا - إلى التدمير والذكاء كما فسر ذلك (كلياتس) . لم لا يمكن أن يمول من المدة نظام منظم كما يمول من الدماغ . سيكون من السهول عليه تقديم سبب مقنع لهذا .

(كلياتس) : يجب أن أحرف يا (فيلون) أنك من بين جميع الناس الأحياء بوانك خير موادة هذا العمل الذى أخذته على عاتقك

(١) يمكن فيها أنغلطوت قصة تكوين العالم كالتحليل . (المترجم)

ألا وهو إثارة الشكوك والاعتراضات ، ويبدو لك على نحو ما طبعاً لا سبيل لك إلى اجتنابه . إن خصب أفكارك ليبلغ من العظم مبلغاً لا أعجل معه أن أعترف بقصورى - بلغة - عن أن أحل بانتظام تلك الاشكالات الخارجة عن طرقتنا والتي تلقينا في وجهى دون انقطاع . بيد أنى أرى في جلاء طلائها وخطأها بوجه عام . ولست أرتاب في أنك أنت نفسك في نفس حالتى الآن وليس لديك الحل معداً شأن الاعتراض بيننا يلزم لك أن تفسر أن الذوق السليم والعقل ياتقنا ذلك ماقتة تامة وأن مثل تلك الأوهام التى سقتها قد تبلبل ساطرتنا ولكنها لم تقنع قط .

في استمرار مرمدى أن كل نظام أو وضع يمكن لا بد أن يشكل عدداً لا متناهياً من المرات . ومن ثم هذا العالم بكل أحواله وبادقها أيضاً قد توله من قبل وانتهى وسيؤول بعدوهم دون أية حدود وتعديدات ولن يرتاب أحسد - بمن له تصور عن قوة الثلاثى إذا توردت بالنهاى - بهذا التحديد

(ديان) : ولكن هذا يفترض أن في وسع المادة أن تكسب الحركة دون أى عامل حر أو محرك أول .

(فيلون) : وأبقت من صعوبة هذا الافتراض ؟ إن كل حادثة قبل التجربة صعبة فهو مفهومة على السواء ، وكل حادثة بعد التجربة سهلة مفهومة على السواء . إن الحركة - في كثير من الآلة - في الحاذية في المرونة ، في الكهرباء ، تبدأ في المادة دون أى عامل حر معروف ، وافترض حامل حر يمول دائماً في هذه الحالات هو بعض فرض ، والفرض لا تصعبه فوائد ما . إن بداية الحركة في المادة تقسمها أمر متصور تصوراً أو شيئاً شأنه شأن انتقال الحركة من الذهن إلى الذكاء .

ثم لم لا يمكن أن تكون الحركة قد انتشرت بالذبح خلال الأزل كله ، ولا يزال المذخور منها - أو ما يقرب منه - قائماً في العالم ؟ فيقدر ما يقدر في تأليف الحركة بقدر ما يكسب باعتلالها . وأيا كانت الملل ، فالواقع يقينا أن المادة هي - وقد كانت دائماً - في امتزاج متصل بقدر ما تصل إليه التجربة أو العرف البشري . والآن ليس هنالك

الفضل الثامن

(فيلون) : إن ما تنسب إلى خصب أفكارى يرجع الفضل فيه بتمامه إلى طيبة الموضوع . في الموضوعات المناسبة لمائرة العقل الصبغة ، ليس هنالك بوجه عام إلا تحديد واحد يحل معه الرجحان أو الاقتناع ، وعند رجل الحكم الصحيح تظهر كل الافتراضات الأخرى ما عدا ذلك التحديد باطلاً وأهمية . ولكن في مثل هذه المسألة الرامنة ثمة مئات من وجهات النظر المتناقضة - قد تحتفظ بنوع من المماثلة الناقصة ويكون للابتكار هنا مجال طليق ليدل جهده . وإنى لا اعتقد أن في وسعى - دون مجهود كبير في الفكر - أن أقترح مذاهب أخرى لبده الحقيقة قد يكون لها مظهر وأهن من الحقيقة وأن يكون منهجك أو أحد مذاهبى هو المذهب الصحيح في الف فرض أو مليون عند واحد .

مثلاً ماذا على إذا اجتشت الفرض الإيقورى القديم ؟ لقد عمد هذا الفرض بوجه عام ويحق - كما اعتقد - أكثر المذاهب المقترحة بطلاناً ، بيد أنى لست أدري ما إذا لم يكن من الممكن بقليل من التعديلات أن يكون له مظهر وأهن من الرجحان . فبدلاً من افتراض المادة لامتناهية كما فعل أيقورس لنفترضها متناهية . ويلزم أن يحدث

- على الأرجح - في كافة أنحاء العالم جوية واحدة من المادة في حدود مطلق .

• ساقاً بوه •

وهذا الاختيار عنه الذي وقمنا عليه في سياق الحقبة يوحى أيضا بفرض جديد عن بدء الخليقة ليس باطلاً بطلاناً مطلقاً وغير محتمل . هل هناك منج أو نظام أو تدبير بين الأشياء يمكن للبادة أن تحافظ به على الاتزان الدائم الذي يبدو جوهرياً لها بل وتبقى كذلك على أطراف في الصور التي تولدها؟ هناك يقينا مثل هذا التدبير إذ أن هذه في الواقع مرحلة العالم الزاكن . ومن ثم فالحركة المنصبة في المادة - في أقل من تغيرات لا متناهية - يلزم أن تولد هذا التدبير أو النظام ويرجع إلى طبيعتها ذاتها . ان النظام حين يرمح يدعم ذاته إلى مصور عديدة إن لم يكن إلى الأبد . ولكن حينها ووزنت المادة ورتبها وتوافقت بحيث توأمت حركة دائية وتحفظ مع هذا بإطراف في الصور يلزم أن يكون لحالتها بالضرورة نفس مظهر النفس والابتداع الذي تلاحظه الآن . ولزم أن يكون لأجزاء كل صورة جيما علاقة بين الواحد منها والآخر وبينها وبين الكل . ويلزم أن تكون هناك علاقة بين كل قسمه وبين أجزاء العالم الأخرى وبينه وبين العنصر الذي يقيم به وجهه وبين السواد التي يستعيد بها ما يفقده وما يفسده منه ويته وبين كل صورة أخرى مباينة له أو موافقة . وإن نقصا في أي حزمة من هذه الجزيئات لبدم الصورة وتطلق المادة المؤلفة منها الصورة على حريتها

من جديد ومندفع في حركات وتورات مضطربة إلى أن تجد بصورة أخرى منتظمة . وإن لم تكن مثل هذه الصورة ممددة لاستقبالها وإذا كان في العالم كمية عظيمة من المادة الفاسدة لسكان العالم نفسه مضطربا اضطرابا تاما سواء أكان المهيم على هذا النحو حين العالم الضعيف في بداياته الأولى ، أو هيكل بالياً لعالم وامن عن عمر حتى ورسخ . وعلى أية حال نقشا هيرل إلى أن تولد التورات المتناهية - وإن يكن لا حصر لها - في النهاية بعض الصور تتوافق فيها الأجزاء والأعضاء توافقا يجعلها تدعم الصور وسط تعاقب متصل للمادة .

لنعرض - إذ سنحاول أن نوضح في التعبير - أن قوة عمية خاضعة قد دفعت المادة إلى وضع ، من الواضح أن ذلك اوضع الأول يلزم - على كل احتمال - أن يكون أقصى الأوضاع اختلافا واضطرابا دون أي مشابهة به . وبين أعمال الابتداع البشري التي تكشف إلى جانب تناسب الأجزاء توافقا بين الوسائل والمباينات وتوجه إلى وقاية البات . وإذا ترققت القوة والحركة بعد هذه العملية لازم أن تظل المادة في اضطراب إلى الأبد وأن تستمر هيرل مضطربة دون أي تناسب أو نشاط . ولكن إذا فرضنا أن القوة المحركة - أيا كانت - لازالت مستمرة في المادة لأضع هذا الوضع الأول - في الحال - السيل إلى وضع ثان سيكون كذلك - على كل احتمال - شأنه شأن الأول في اضطراب : وهكذا خلال تغيرات وتورات متعاقبة عديدة . وليس ثمة نظام أو وضع خاص يستمر لحظة دون تغير . والقوة

الأصلية ما - حيث مواظبة على نشاطها تعمل المادة في قلق دائم . وكل حالة يمكنه تولد وتهديم في الحال وإذا لاحت في لحظة واحدة أو جهر من نظام فسرعا ما يندبه وتشرشه تلك القسوة التي لا تقدر والتي تحرك كل جزء في المادة .

وعلى هذا النحو يعض العالم مصورا عديدة في تعاقب متصل من الهيرل والاضطراب . ولكن أليس من الممكن أن يستقر العالم في النهاية بحيث لا يفقد حركته وقوته لمداقة - إذا لنا افترضنا كونها لازمة له - وحتى يحفظ في مظهره بالناسق وسط حركة متصلة وتتموج في اجزائه ؟ هذا ما نجد عليه حالة العالم الآن . فكل فرد بتغير تبجراً دائما وكل جزء في كل فرد ومع ذلك يظل الكل في مظهره واحدا . أليس في وسنا أن تأمل مثل هذا الوضع أو بالأحرى نشوقه من التورات الأبدية في القوة الطائفة . وهذا يمكن أن يفسر هذا الحكمة والابتداع الباديين في العالم ؟ لنأمن شيئا ما في هذا الموضوع بعد أن المادة إذا بلغت هذا التوافق بين الثبات البادي في الصور والثورة أو الحركة الزاكنة في الأجواء أمدا ذلك بجل صائب - إن لم يكن حقيقيا - للمشكلة .

وعلى ذلك من نافذة القول أن نصر على فوائده الأجواء في الهيرلانات والثباتات وتوافقتها السبب فيها يينا . لأننا لا نرى أن أعرف كيف يستطيع حيوان البقاء أن لم تكن اجزائه متوافقة على هذا النحو ؟ ألسنا نجد أنه يهلك في الحال عندما يتقطع هذا التوافق وأن مادته المتحلة

تتشكل بشكل جديد . بل ويحدث أيضا أن تكون أجواء العالم متوافقة توافقا طيبا حتى ليطالب شكل جديد منتظم بهذه المادة المتحلة . وإذا لم يكن الأمر كذلك قبل في وسع العالم البقاء ؟ أليس يلزم أنه يصل - شأنه شأن الحيوان - ببعض إلى أوضاع وحالات جديدة إلى أن يقع في النهاية - بعد تعاقب عظيم وإن يكن متناهيا - في النظام الحالي أو شيء يماثل ؟

(كلياتش) : لقد أحسنت متنا حين ذكرت لنا أن هذا الفرض قد عن لك فجاء في سياق الحقبة . فإذا كان لديك فسخة من الوقت لفحصه لسرعان ما تتبين اعتراضات قهقارة يفترض لها . أنت تقول أن ليس ثمة شكل يمكنه أن يبقى ما لم يكن موزدا بذلك القوي والاهتمام اللازمة لبقائه . ويلزم تجربة نظام أو تدبير جديد ولهذا دون انتفاع إلى أن تقع في النهاية على نظام ما في وسع أن يدعم ذاته ويبقى فيها . ولكن - بمعنى هذا الفرض - من أين نقشا المزايا الكبيرة والمتبع التي للأناس والحيوانات جيما ؟ عيتان أأذنان أ ليس هذه ضرورية ضرورة مطلقة لبقاء النوع . ينبغي أن يكون الجنس قد انتشر من غير جياذ وأبقار وخراف وتلك القواكة والمنتجات التي لا حصر لها والتي نعين على أرضائنا وامتاحتنا . إذا لم تخلق نوق لفائدة الإنسان في صحارى إفريقيا وبلاد العرب الرملية أكان العالم يعمل ؟ وإذا لم يكن هناك حجر المناطيس يجعل للإبرة ذلك الانجذاب المفيد الرائع أكان

المهمة والله لا تشري بيدار في الماء المذكور. مبادئ الطبيعة شحيحة بوجه عام بيد أن أمثلة من هذا اللون هي أبعد عن أن تكون نادرة ، وإن أياً منها لدليل كاف على التدبير بل وعلى التدبير الكريم الذى أتاح الظهور للنظام والتدبير فى العالم .

(فيلون) : يمكنك - من الآن - أن نحصل بأن الفرس السالف يبلغ من النقص وعدم الاستكمال حداً بعيداً وهذا ما لم نأردده فى التسليم به ولكن هل يمكننا أن نترقب - نوقم مقولاً - نجاحاً أعظم فى مثل هذه المحاولات ؟ أو هل لنا أن نأمن فى تفيد مذهب لبدء الخليفة لا يقبل أية استثناءات ولن يشتمل على ملازمة ما تتلفر مع تجربتنا فى التنبؤ فى الطبيعة تلك التجربة الناقصة المحدودة ؟ إن نظريتك مهما لا يمكن أن تدعى مثل هذه الميزة حتى وإن كنت قد وقعت فى مذهب المذهب ، وهو خير مما جعلك تحافظ على توافق مع التجربة العامة . لنضعها مرة أخرى موضع التجربة . ففى جميع الأمثلة التى نرى لنا مشاهدتها نجد أن الأفكار نسخ من الموضوعات الواقعية وهى - لكن أعيش تغيراً عليها - تقليدية وليست نماذج أساسية : لقد عكست هذا النسق وبعثت الحق الفكر . وفى جميع الأمثلة التى نرى لنا مشاهدتها ليس الفكر نفوذ على المادة المهم الاحياء كانت المادة مقترنة به بحيث يجرى بينهما نفوذ متبادل متعادل . وليس ثمة حيوان يستطيع أن يترك أى شيء غير متحركاً مباشراً اللهم إلا أطراف يده الخاص ، بل وتبادل الفعل والرجح يبدو تآخراً كلياً فى الطبيعة . ولكن نظريتك تناقض هذه التجربة . هذه

الأمثلة - إلى عديد غيرها كان من المسور جميعاً وعلى الأخص اقتراض ذهن أو نظام للفكر أو بعبارة أخرى حيوان خال لا يبنى - فحذرك - أن تقبل أى مذهب من هذا النوع - من تمثيل مثيل - فكذلك لا يبنى نتيجة أى مذهب استناداً الى عدم تلاؤم بسيط منه . إذ أن هذا شطط لن نستطيع أن نقول - بحق - إن أحداً يسلم به .

ومن المعترف به أن المذاهب الدينية جميعاً موضوع لمحاكم عقلية لا تقهر . وكل مساجيل يظهر بدوره بيننا يشن حرباً صغوباً ويعرض أباطيل خصمه وبربريته وهفاته المفسدة ، ولكبتهم جميعاً - على الجملة - يهدون نظراً كاملاً لكذلك الذى يقول لم إنه ليس ثمة مذهب يبنى اعتناقه صدق هذه الموضوعات لهذا السبب الواضح وهو أننا لا يبنى أن تقبل سلطاناً ما بعدد أى موضوع . والملازمة المقول الوحيد - هنا - هو تنسيق تام للمعكم . وإذا نجح كل اقتضاض وفعل كل دفاع بين رجال الدين يا قاصر التام لذلك الذى يبق دائماً مع الناس جميعاً متخذاً خطة الهجوم وليس له حالة المستقرة أو مقتر ما يجب عليه أن يثدافع عنه ؟

الفصل السابع

(دميان) : ولكن إذا كان ثمة اشكالات تصعب الحجة البديهة لم يكن أصغر لب أن تتبع تلك الحجة الأولية البسيطة الرقيقة التى إذ تبدت يرهان لا خطأ فيه تقطع دفعة واحدة كل شك وإشكال ؟ وهذه الحجة أيضاً يمكننا أن ندال على لا نهاية الصفات الإلهية التى أخفى ألا يمكن أبنة تأكيدها يقين مستمد من أى موضوع آخر . إذ كيف يمكن لمسول متناه - ونبى لنا أن نعرف أنه كذلك - أن يدال على علة لا متناهية ؟ كذلك من الصعب جداً - إن لم يكن من المستحيل إطلاقاً - أن نستخلص وحدة الطبيعة الإلهية من تأمل لأعمال الطبيعة وحسب ، ولن يمدنا اتفاق الحجة وحده - حتى إذا سلنا به - أى استيثاق عن تلك الصفة . فبينما الحجة الأولية

(كليانس) [يستعمل هلا]

يدوى (دميان) أنك تستدل كما لو كانت تلك المرات والقرارات فى الحجة المجردة أدلة مستوفاة على نتائجها . ولكن عدى أن من المناسب أولاً أن نقارر إحدى هذه الحجج وثبت عليها ، وسنحاول فيها بعد - من الحجة نفسها غيراً من أن نحاول من نتائجها النافعة - أن نعين القيمة التى يبنى أن نحصل بها .

(دميان) : إن الحجة التى سأثبت عليها هى الحجة العامة . كل ما يوجد يلزم أن تكون ثمة علة أو سبب لوجوده ، فيستحيل إطلاقاً على شيء ما أن ينتج ذاته أو أن يكون علة لوجوده الخاص ، وعلى ذلك عند ما نرتقى من المخلوقات إلى المثل يلزم لنا إما أن نخصى فى تتبع تعاقب لا متناه دون علة ما نهائية على الإطلاق ، أو يتضمن علينا فى النهاية أن نلوذ بعلامة هائية ما توجد وجوداً ضرورياً ، والآن يمكن للتدليل بذلك على بطلان الافتراض الأول . ففى السلسلة اللامتناهية أو التعاقب اللامتناهى للعلة والمخلوقات ثمة قوة أو فاعلية فى تلك العلة تسمى المخلول للوجود . ولكن السلسلة أو التعاقب بكميته مأخوذاً مما ليس مياً أو حسيباً عن أى شيء . ومع ذلك فن الواضح أنه مقتر إلى علة أو سبب بقدر ما يقتصر إلى ذلك أى موضوع جزئ يبدأ وجوده فى الزمان . ولا يزال من المقول أن نسال لم وجد هذا التعاقب الخاص منذ الأزل ولم يوجد أى تعاقب آخر غيره . ولم يوجد تعاقب على الإطلاق وإذا لم يكن ثمة موجود قد وجد وجوداً ضرورياً لاستوى فى الإمكان أى افتراض يمكن صياغته ، ولما كان هناك بطلان أكثر فى القول بالأشياء قد وجد منذ الأزل منه فى القول بذلك التعاقب للعلة الذى يكون العالم . فإذا كان إذن هذا الذى مياً شيئاً ما للوجود منفصلاً عن لا شيء . ووجب الوجود لا مكان خاص ونهاه عن الباقى ؟ من المقروض أن ليس ثمة علة خارجية والصدقة كلمة خلو من المعنى . أكان لا شيء ؟ ولكن هذا لا يسهل أن يتبع أى شيء . وعلى

ذلك يعتمد علينا أن نلزم بوجود واجب الوجود يحمل في ذاته سبب وجوده ولا يمكن افتراض كونه ليس موجودا دون تناقض صريح فهناك بالتالي مثل ذلك الموجود أعني إلها .

(كياش) : لن أذهب (فيلون) - وإن كنت أعلم أن المبادأة بالاعتراضات متعة الكبرى - أن يظهر ضعف هذا الاستدلال الميتافيزيقي فهو يبدو لي بجلاء. متناقض الأساس وفي الوقت متخيل النتيجة لقضية تقوى صادقة ودين صادق حتى أنني لأجسر على اظهار جلالته .

سأبدأ بملاحظة أن هناك جلالا في ادعاء البرهنة على أمر من أمور الواقع أو التبدل عليه بأي حجة أولية . ليس ثمة شيء قابل للبرهنة ما لم يكن حده متطوياً على تناقض . وليس ثمة شيء متصور تصوراً متيناً متطوياً على تناقض . وكل ما تصوره موجوداً يمكننا كذلك أن تصوره لا موجوداً . وعلى ذلك فليس ثمة موجود يتلوى لوجوده على تناقض . وبالتالي ليس ثمة موجود وجوده قابل للبرهنة . إني أعرض هذه الحجة على أنها حجة حاسمة وأنا أعزم أن أدير الجدل كله حولها .

لقد ادعى أن الله واجب الوجود وجوب وجوده هذا نحاول تفسيره بالرمز بأننا إذا عرفنا جوهره كله أو طبيعته كلها لكان لنا أن ندرك أن استمالة عدم وجوده بالنسبة إليه كاستمالة اثنين مكررة

مرتبه ألا تكون أربعا . ولكن من الجلي أن هذا لا يمكن أن يحدث أبدا ما دامت ملكاتنا تظل كما هي عليه الآن . سيطر من الممكن لنا أن تصوره في أي وقت لا وجودا كما تصوره من قبل وجودا ، وليس يسم الذهن قط أن يتخضع لضرورة افتراض موضوع ما باقيا دائما في الوجود على نحو ما يتخضع لضرورة تصور اثنين مكررة أن تكون دائما أربعا . وعلى ذلك فالكلمات وجوب الوجود لا معنى لها أو - وهذا هو الشيء عينه - ليس ثمة مادة فيها

ولكن - رد هل ذلك - لم يمكن أن يكون العالم المادي واجب الوجود بمقتضى هذا التفسير الموهوم للوجوب فالسنا نجري على التأكيد بأننا نعرف كل كليات المادة أو - كما ينبغي لنا أن نقرر - أنها قد تشمل بعض كلياتها إذا عرفت قد تجعل لوجودها يظهر تناقض يبلغ مبلغ التناقض في أن مكرر اثنين يساوي تحسا . وإني لأجد حجة واحدة لحسب تستخدم للتدليل على أن العالم المادي ليس واجب الوجود وهذه الحجة مستمدة من أن مادة العالم وشكله كلاهما شيء عارض . لقد قيل إن أي جوئية من المادة قد يتصور إنهما وأن أي شكل قد يتصور تغيره . وعلى ذلك فثل هذا الانعدام أو التغير ليس مستحيلا . ولكن يبدو من التحيز الشديد ألا يدرك أن الحجة عنها تبسط كذلك على أنه يقدر ما يكون له يتصور عنه وأن الذهن يمكنه - على الأقل - أن يتخيل لا موجودا أو أن يتخيل صفاته متغيرة . قد تكون بعض صفات مجهولة صفة التصور تلك التي يمكنها أن تحمل لا وجوده يظهر

مستحيلا أو أن تحمل صفاته ثابتة وليس يمكن تبيان سبب لكون هذه الصفات لا تنقسم إلى المادة . إذ لما كانت كلها مجهولة صفة التصور فليس يمكن قط التدليل على كونها غير ملائمة لها .

أضف إلى هذا أن في تتبع تناقض أولي للموضوعات يبدو لنا من الباطل أن نبحث عن علة عامة أو مانع أول . كيف يمكن لأي شيء يوجد منذ الأزل أن يكون له علة ما دامت هذه العلاقة تتلوى على سيق في الزمان وبداية في الوجود ؟

في مثل هذه السلسلة أيضا أوجدنا التناقض بين الموضوعات كل جزء تسمي بما يسبقه ويسبب ما يلحقه . فإين هو الإشكال إذن ؟ ولكنك تقول أن الكل يتطلب علة وأنا أجيبك أن توحيد هذه الأجواء في كل هو مثل توحيد مقاطعات متباعدة عديدة في علكة واحدة أو أعضاء متباعدة عديدة في جسم واحد ، أقول هذا يتم بفعل نفس من الذهن وليس له أي تأثير على طبيعة الأشياء . ولو أنني أظهرتك على الملل الجوتية لكل فرد في مجموعة من عشرين جوتية للسادة لرأيت من غير المعقول أن نسأل بعد ذلك عن علة العشرين ككل . لهذا ما غمرته تصوراتنا في تفسير لمة الأجزاء .

(فيلون) : وإن تكن الاستدلالات التي قدمتها يا (كياش) قد تفيين من أن أبادر بأشكال أخرى جديدة يد أني لا أستطيع أن أسع نفسي إليه من الوقوف عند موضوع آخر . لقد لاحظ علماء

الحساب أن مضاعفات العدد ٩ تواف دائما إما ٩ أو مضاعفات أصغر العدد ٩ وإذا جمعت كل الأرقام التي تتألف منها المضاعفات السابقة . وعلى ذلك فن ١٨ و ٢٧ و ٣٦ وهي مضاعفات ٩ تتكون ٩ بإضافة ١ إلى ٨ و ٢ إلى ٧ و ٣ إلى ٦ . وعلى ذلك فالعدد ٣٦ من مضاعفات ٩ أيضا وإذا جمعت ٣ و ٦ و ٩ تتكون ١٨ مضاعفا أصغر العدد (١) .

وقد يجب ملاحظة سبب هذا الانتظام القائم على أنه أثر من آثار المدة أو التدبير ولكن عالم جبر حاذق يستنتج في الحال أنه على الضرورة ويرهن على أنه يلزم أن ينتج ذلك دائما من طبيعة هذه الأعداد . وأنا أنسال أليس راجحا أن تدبير العالم كله مسير بضرورة عاتقة وعلى ذلك فليس ثمة علم جبر بشري يزودنا بمفتاح لحل الاشكال ؟ وبدلا من أن نجيب بنظام الموضوعات الطبيعية أليس يمكن أن يحدث أننا إذا امكننا أن ننفذ إلى طبيعة الأجسام الباطنة يمكننا أن نرى في جلاء لم احتمال استمالة مطلقة ن تستطيع قبول أي وضع آخر ؟ بالقناعة الحفل في ادخال فكرة الضرورة هذه في مسائلنا الحالية ، وكما تمدا - بالطبع - باستدلال يتعارض تمارضا مباشرا مع الفرض الديني .

(رسمي (فيلون) : ٥٧٧]

ولكن إذا استغلنا هذه التجريدات جيجا وانحصرتا على الموضوعات الأكثر الفقه وانضمت مجرتا هذه الملاحظة وهي أن الحجة الأولية يندر

أن يجدوا شديدة الإقناع لإحدى ذوى رأس ميتافيزيقي ألفوا الاستدلال المجرد ووجدوا من الرياضيات أن العقل كثيرا ما يهوى إلى الحقيقة وسط خوض وتمازج في مظاهره الأولى ، وقد نقلوا هذه المادة في التفكير إلى موضوعات لا ينبغي أن نجد لها مكانا بينها .

ولكن القوم الآخرون - حتى من ذوى الذوق السليم والمبطل الصادق للدين - يشعرون دائما بتصور في مثل هذه الحجج ، ومع هذا قد لا يكونون قادرين على بيان موطن هذا التصور . وفي هذا دليل يثبت على أن الناس قد استمدوا دينهم - وسيظلون يستمدونه - من منابع أخرى غير هذا الاستدلال .

الفصل العاشر

(ديان) : رأى هو التسليم بأن كل إنسان يشعر في صدره بحقيقة الدين على نحو ما وهو مقود - من وعى بجوانبه وشقائه منه عن أى استدلال - إلى توحى الحماية من ذلك الموجود الذى يشهد عليه وتمسك عليه الطليقة كلها . إن غير مشاهد الحياة لتثير الضعف أو المال حتى أن القلب لا يزال موضوع آمائنا وعافئنا جميعاً . فمن نطرق إلى الأمام دون انقطاع أو نحاول بالصلوات والتعب والصنعة أن نسترض تلك القوى المجهولة التى تلبس بالتمهيد قدرتها على إبدائنا والاستبداد بنا . يأتينا من مخلوقات تسمى أى ملاذ لنا بين أرواء الحياة التى لا حصر لها ، ألم يرحب لنا الذين يعض طرائق للتكفير وتخفيف تلك الأحوال التى نزعها وتبدلها على الدوام ؟

(فيلون) : إننى لأحبل هذا إلى أن غير متجيب بل والنتيج الوحيد لمداية كل امرئ إلى معنى لائق للدين هو بصوريات صحيحة لشقاء الناس وإنهم . ولذلك الفرض كانت موهبة بلاغة وخيال قوى الرم من موهبة استدلال وحجة .

إذ أمن الضرورى للتدليل على ما يشعر به كل فرد في نفسه ؟ من

الضرورى لحسب - أن نجعل كل أنفسنا نضرب شعورا أوثق وأمل بالحساسة إن أمكن .

(ديان) : إن الناس لمقتنون - والحق - اقتناعا وأفيا بهذه الحقيقة الطيبة المحونة . إن بلایا الحياة وشقاء الإنسان والمفاسد العامة في طبيعتها والمناخ غير المستوفى بالقدرة من ثروة وجاه ، هذه العبارات قد تحدث - على الأغلب - مضرب المثل في جميع اللغات . ومنها الذى يستطيع أن يشك فيما يبله الناس جميعا من شعورهم وتجربتهم المباشرة ؟

(فيلون) : في هذه الثقة يتفق المنحل اختاها ناما مع الشوق وفى جميع الآداب - من مقدسة ودنيوية - قد جُلب في موضوع الشقاء البشرى بالجمع بلاغة يمكن للأذى والحزن أن يوحيا بها . والعمراء - الذين هم محرومون في حديثهم عن الإحساس لا عن مذهب والذين لصادتهم من ثم قوة أعظم - وأقاصوا في صور من هذا التبليل . فنذ (هومبروس) إلى (دى بوج) (١) كان ذلك الرهط الملهم كله شديد الحساسية بأن ليس ثمة تصور آخر للأشياء يواهم شعور كل فرد وملاحظته

(ديان) : أما عن الثقة ظلت في حاجة إلى البحث عنهم . قتلبي

شأن في مكتبة (كلياتش) هذه . سأجرؤ فأؤكد أنه - باستثناء المؤلفين في العلوم الخاصة بالكيمياء وعلم النبات ، الذين لم تنح لهم فرصة لمعالجة الحياة البشرية - يبدو أن نجد بين أولئك الكتاب الذين لا حصر لهم واحدا لم ينزع الإحساس بالشقاء الإنسانى شكوى منه واعترافا ، لقد كانت الظروف جميعا في هذا الجانب وفيما أذكر ليس ثمة مؤلف - في هذه الفترة أو تلك من كتابته - كان من الحفاة بحيث ينكرها .

(فيلون) : أرجو أن تمنقني لقد أنكركها ليتز . وربما كان أول (١) من خاطر يمثل هذا رأى البائع في الجراة والمفارقة ، لقد كان - على الأقل - أول من جملة جوهريا في مذهب الفلسفى .

(ديان) : وإذا كان إلا أول ألم يكن يستطيع أن يشعر بظننه ؟ إذ أمذا موضوع يستطيع الفلاسفة الفروع في القيام باكتشافات فيه وعلى الأخص في هذا العصر المتأخر ؟ وهل يستطيع إنسان ما أن يأمل بانكار بسيط - إذ أن الموضوع قلما يسمع باستدلال - في صدم شهادة الجنس البشرى الموحدة القائمة على الإحساس والوحى ؟

(ثم أورد %)

(١) هنا الإحساس بجملة عنه دكتور كنج ويلز آخرين بل ليتز يد أنه لم يأخذ به أحد بل من الشهرة مع هذا الفيلسوف الألماني (المؤلف)

(١) دى بوج (١٨١ - ١٦٩٠) . شاعر إنجليزى علم فساد صديقه نفس بالكتابة والحزن [القريب] .

لم يدعى الإنسان السيوف من مجموعة الحيوانات الأخرى كذا ؟ إن الأرض برمتها - مدقني (يا فيلون) - مدمومة مدمنة ، وثمة حرب دائمة مضطربة بين المخلوقات الحية جميعا . فالضرورة والجوع والحاجة تبع القوى والشجاعة ، والخوف والتلق والموت ترجع التصفيف الجبان وإن أول ولوح في الحياة "يكثرت الطفل الموليد وأباء النفس ، وإن الضعف والسيوف والضنك لتصبح كل مرحلة من مراحل تلك الحياة ويكون ختامها الشرع والفزع .

(فيلون) : لاحظنا أيضا مكائد الطبيعة التريبية لتفويض حياة كل موجود حي . فالقوى يفترس الضعيف ويقتله في فروع وقلق دائم . والضعيف بدوره يفترس القوي ولا يبق عن إغافلته والحرش به . تأمل ذلك الجنس الذي لاحصر له من الحشرات وهي اما تتوالد على جسم كل حيوان أو تنحرم حوله وتنقبض حشاها لهذه الحشرات حشرات أخرى أحبال منها تستبها . وعلى ذلك في كل جانب - في الأمام الخلف من فوق ومن تحت - تكثف كل حيوان أعدادا تنوحى دائمة شقاء وإبادة .

(فيلون) : (سألنا)

الأمر على عكس ذلك فهنا - على التخصيص - يتضح أعظم انضاح انساق تنال الطبيعة رعاها . من الحق أن في وسع الإنسان - بالاتلاف - أن يتغلب على كل أعدائه الحقيقيين

ويبدو سيد الخليفة المبرانية كلها . ولكن أليس يمثل الإنسان لنفسه حيوانات متجعة ، شياطين وهمية تطلق بالأموال الخرافية وتموق كل مناع في الحياة ؟ فلذته كما يتحلبا تبدو في أعيانهم جبرية ، وغذاؤه وراحته تثير فيهم الرية والتبطل . ونومه وأحلامه تبني له مواد جديدة للخوف والقلق . وحتى الموت وهو مهربه من كل رذء آخر يمثل وحسب الملح من الرزايا التي لا نهاية لها ولا حصر . إن الذئب ليس أكثر إثارة للتطلل الواسع من إثارة الخرافة لصدور الفانين انصاء القلق .

ثم تأمل يا (ديمان) هذا المجتمع هينه الذي تتغلب فيه على تلك الحيوانات المفترسة وهي عدونا الطبيعي . تأمل أي نوع جديد من الأعداء لا يثيره طينا ؟ أي رذء وشقاء لا يسببه لنا ؟ إن الإنسان هو أعظم عدو للإنسان . وبالأسياد والظلم والوراثة والهرمان والنف والضعف والحرب والطلب والحياة والتدبر ، هذه جميعا يهذب الناس بعضهم بعضا وسرعان ما يتفكك هؤلاء الذين كونه مالم يهملوا من رزايا أشد وطأة لا بد وأن تصحب انفصالهم .

(ديمان) : ولكن وإن تكن هذه المهانات الخارجية التي نصبتنا من الحيوانات والأناس من العناصر كلها التي تنقص علينا ، تكون نتجا عبقنا من الرزايا فهي ليست شيئا إذا قمست بترك التي تنفأ في قعرنا من اختلال مزاج ذهننا وبدنا . وكل منها ما ينشأ من تذيب الأمراض البلى ؟

استغفر إلى الاحصاء المفجع للشاعر العظيم :

حسوة الأعماء والفرفة وآلام القبولنج
المريضة ، والبيط المحتدم والكآبة المكظومة
والجنون المستعر والحوال السقيم والنحول
والطاعون المكنتسح . لقد كانت الرجفة عيفة
والآفات عميقة : والياس يسمى إلى المرضي
ويتنقل من فراش إلى فراش ، وعليهم بسائط
سهمه وهو يطعمهم - لكن في تباطؤ -
وإن يأنوا عاليا ما يضرعون إليه بالتدور ،
وكانه خيرهم الأعظم وأملهم الأخير .

د وأردف (ديمان) قائلا :

إن اضطرابات الذهن وإن تكن أكثر استنفاد الأنا ربما لم تكن أقل كآبة وإزعاجا . والتدم والحيل والكرب والحق وخيبة الأمل والتلق والخوف والكآبة والياس ، هذا الذي يرب بالحياة دون غزوات قاسية من هذه المذبات ؟ وكل ندر شعورهم بأحاسيس أفضل ؟ إن الكدح والفقر - على مقت الجميع لها - هما الزاد الحقيقي لأكبر عدد ، وأولئك المظطرون للتلاقل الذين ينمون باليسر واليسار لا يلبثون البتة الرضى أو التبع الصادق . إن غيرات الحياة جميعا بجمعة تجعله شقيا حقا . بل وأي رذء من هذه الأرزاء - ومن الذي يستطيع أن يغلث منها جميعا ؟ بل إن فيه خير واحد - ومن الذي يستطيع

أن يملك الخير كله ؟ - لتكن في التالب لجمال الرغبة في الحياة مثيلة . إذا اندفع غريب جاء إلى هذا العالم لأرضه - كمدودج لأرزاء الحياة - مستثنى منها بالأمراض وسجنا مكنتا بالجرمين والمذنين ومبدان معركة انتشرت على ساحته الجنت ، وأسطولا يتنهب على المحيط ، وأمة تعنى تحت وطأة الاستياد والمجاعة والوباء . أين أخوده لأدير له وجه الحياة البسج وأمدته بفكرة عن لئانها ؟ إلى مرتص أو إلى أوبرا أم إلى بلاط ملك ؟ سيتن - بحق - أنني كنت أظنه لحسب على ألوان من التوس والياس .

(فيلون) : لا مفر من هذه الآلة المؤثرة ولكننا - ولنا العذر في ذلك - لا تزال نريد في الانتماء . إنى لاسال لم كان الناس في جميع العصور يشكون دون انقطاع من شقاء الحياة ؟ .. قد يقول امرؤ أن لاحق لم نهذه الصكاوى إنما تنبع من موقفهم المتهم الضجر التلق وإنى لأجيب أني الوسع أن تكون هناك دامة الشقاء أيقن من هذا المزاج النفس ؟

ويقول معارض : ولكن إذا كانوا أشقياء حقا على ما يزعمون فلم يبقون على قيد الحياة ؟ ...

غير قانين بالحياة وجليين من الموت
أقول : هذه هي الدسلة التي تثقيدنا
الحياة لا ترضى والموت يحيف

٢ - ٨ - عازرات في الدين النيس

المعلم السعيد شارل الخامس^(١)، فهو عندما أجده السؤدد البشرى سلم مقاليد أملاكه الميراثية جميعاً إلى ابنه في الخطبة الأخيرة التي ألقاها في تلك المناسبة التذكارية أعلن على الملأ أن أعظم ضروب التجاع التي تتم بها قد خالطها الكثير من المهن حتى أنه يقول صادقاً إنه لم يتم بأي رضى أو هناء . ولكن هل زودته حياة التقاعد التي لا ذ بها بمسادة أعظم ؟ وإذا صدقاً ابنه لعلمنا أن تدمه بدا في اليوم الذي غفل فيه عن العمل .

وارتقى (شيشرون) من مشتل خامل إلى أعظم تألق وشهرة . ولكن أية شكوى ، فحصة تنطوي عليها خطابه المألوفة وأحاديثه الفلسفية ؟ فهو يصور لنا - بما يرواه تجربته الخاصة - (كانتون)^(٢) العظيم (كانتون) السعيد يتجأ في شيخوخته بأنه لو منح حياة جديدة ليلد حاصره .

سائل نفسك سائل آيا من معارضة أيقبل أن يعيش مرة أخرى السنوات العشر أو العشرين الأخيرة من حياته . كلا ! لكن سيتولون إن العشرين القادمة ستكون أفضل من السالفة :

(١) شارل الخامس : (١٥٢٢ - ١٥٥٠) توج ملكاً على فرنسا سنة ١٥٢٤ . كان حليفاً لسياس ليا ، ودمرت طرف في مهادة اقتصادية واجتماعية وهدمت مالياً . ومن أم آثاره دار الكتب الملكية بباريس . (لقد تم)
(٢) كانتون . (١٥٢٢ - ١٥٤٧) ق . ٢٠ . خطيب دوماني نائب المصير ، صار معاً معاهل كل رجل حكيم شديد البأس . (الفرغم)

وقد جهر على أنها دعة باطلة تلك التي تتم بها فلة من النفوس الملهبة وهي التي أذاعت هذه الشكاوى بين الجنس البشرى بأسره وإني لأسأل ما هي هذه الدعة التي تنتقمها ؟ أي شيء آخر غير حساسية أعظم لهذا الحياة والآلام جميعاً ؟ وإذا كان الإنسان ذو المراجع الرقيق الملهب - وهو أمل بالحياة من سائر الناس - هو وحده الأشق فإني حكم يجب أن نكونه عن الحياة البشرية بوجه عام ؟

يقول خصمنا : دُع الناس في مجموع فلسوف يرضون وهم الذين يصنعون - من قصد - شقاءهم ... وإني لأجيب : لا فإن هؤلاء تلقاً يتبع استكاثهم ونجبة أهلهم وكدرهم ومشقتهم ونشاطهم وطموحهم .

(كلياتش) : إني لا أستطيع أن لاحظ شيئاً شبيهاً بما تذكره في أناس آخرين ، ولكنني أعترف أنني لا أشعر به في نفسي إلا شعوراً ضئيلاً أو لا أشعر بشيء عنه ، وأمل أنه لا يبلغ من الصبر المبلغ الذي تصوره به .

(ديمان) : د مانغا .

إذا كنت لا تفهم نفسك بالشقاء البشرى فإني لأعتكك على هذا الفرد السعيد . إن هناك آخرين - يبدو أن أكثر الناس نجاحاً - لم يخطروا من المجاهرة بشكاواهم بالجمع الأساليب . لتنظر إلى الامبراطور

أهو مرير لا يجتنب الشر ولكنه غير قادر على ذلك ؟ وأذن فهل هو عاجز ؟ أهو قادر ولكنه غير مرير ؟ وإذا فهو حقود . أهو قادر مرير بما ؟ في أين أتى الشر إذن ؟

أنت يا (كلياتش) تنسب - وأعتقد هذا حقاً - للطبيعة غرنا وقصداً . ولكنني أسألك ما هو موضوع هذه المناقشة وهذه الآلة العربية التي يسطرها في الحيوانات جميعاً ؟ إن حفظ بقاها الأفراد وحده وانتشار الجنس ليكفيان أن يكونا غرضاً لها لو أن هذه السلسلة من الأشياء قائمة في العالم دون أي نهاية أو اهتمام بمسادة الأعضاء الذين يؤلفونها . ليس ثمة مدد لهذا العرض ، ليس ثمة آلة لتعطي فلة حصنة أو يسراحتنا ، ليس ثمة زاد من المنفعة الخاصة والهاء المصون ، ليس ثمة نعم دون حاجة أو ضرورة تصعبه . إن ظواهر هذه الطبيعة القليلة لتندلها - على الأقل - ظواهر مضادة لما أحمية أعظم .

إن إحساسنا بالموسيقى والتناغم بل بالجمال على جميع ضروبه لينبأ الرضى دون أن يكون هذا ضرورياً على الإطلاق لحفظ بقاها النوع وانتشاره . ولكن - من جهة أخرى - كم من الآلام المضنية تنشأ من القفر وحساسة المئات والصمداع ووجع الأسنان والرواثرم حيث تكون إصابة الآلة الحيوانية اما بسيطة أو لا برة منها ؟ والظرب والضحك والهر والوجع تبدو ضروباً من الاضرار بلا مقابل وليست خزع إلى أبعد من ذلك ، والبيل والحر والبرد والحرق هي آلام من الطبيعة عينها . وإذا فكيف يظهر الجود الإلهي على نحو ما تهمونه أتم

فن ثملات الحياة بأملون أن ينالوا ما لم نستطع الاطراف الأولى المعجزة أن تبه^(١)

وعلى ذلك يحدون في النهاية - وهذا هو الصفاء الانساني الأكبر يوفق أيضاً بين التفاضل - أنهم يشكون من قصر الحياة وغرورها وأساها ما .

(فيلون) : وهل يمكنك يا (كلياتش) - بعد هذه التأملات وبعد تأملات أخرى لا نهاية لها قد تمن لنا - أن تبقى في مذهب الشبهة وترحم أن صفات الله الخفية ، عدائته وجوده ورحمته واستقامته هي من طبيعة هذه النضائل في المخلوقات البشرية ؟ نحن نعلم بأن قوته لا متناهية ، وكل ما يريد ينتهي ، ولكن ليس الإنسان ولا أي حيوان آخر بسعيد ومن ثم فهو لا يريد سعادتهم . فمن حكمت لا متناهية فهو لا يحظى قط في اختيار الوسيلة لل غاية . ولكن جرى الطبيعة لا يزع إلى النعم البشرى أو الحيوانى ، ومن ثم فهي لم تقم لهذا العرض . وفي مجال المعرفة البشرية برمتها ليس ثمة استدلالاً أو ثوق وأبعد من الخطأ من هذه .

فهل أي نحو إذن يشبه جوده ورحمته جود الأناس ورحمتهم ؟ ألا إن أسئلة (أيقورس) القديمة ما برحت بلا جواب .

(١) Dryden : Auringzebe, Act. IV sc. 1. (الزلف)

المسيحية ؟ ليس ثمة أحد الهم إلا نحن الصوفيين - كما يطيب لك أن تدعونا - نستطيع أن نلهم هذا الموج الغريب بين الظواهر ، وذلك بأن نستمدنا من كمال لامتناه ولكن لا إحاطة لنا بها .

(كياشس) : [بنما]

وأخيراً هل كشفت عن مقاصدك يا فيلون ؟ إن انشغالك الطويل مع (ديان) لم يدفعني - في الحق - إلا قليلاً ، ولكنني وجدتني - كل الوقت - تجهز في الحفاء بطارية من المدافع ضدّي . ويجب على أن اعترف بأنك قد وقفت الآن على موضوع يتأهل روحك النيرة في الممارسة والجدل . وإذا انشغلتك أن تبت التفتة الحالية وتدل على أن الجنس البشري شقى فاسدًا لكان مثالك - في الحال - نهاية لدين . إذ لاى غرض قامت صفات الله الطبيعية بديها صفاته الخلقية لا زالت منفعة بالملك مفترقة إلى اليقين ؟

(ديان) : أنت ترتب بسهولة عظيمة في أبسط الآراء وأدناها إلى القبول حتى عند المتدينين الورعين أنفسهم ، وليس مثالك أدعى إلى الدهشة من أن نجد موضوعاً كهذا يتصل بشقاء الإنسان وإنه يعالج بما ليس أقل من الكفر والندس . ألم يطر رجال الدين والبشرون - الذين أقاموا عظائمهم في مثل هذا الموضع الخصب ، أقول ألم يطرأ بسهولة حلاً للاشكالات التي قد تصبى ؟ هذا العالم ليس إلا نقطة إذا تورن بالكون ، وهذه الحياة إن هي

من اللذة غير أشد وأسمى بما لا يعد . إن ساعة من الألم خلقة أن تعدل - في الغالب - يوماً أو اسبوعاً أو شهراً من مباحنا العامة الناعمة . وكل من الأيام والأسابيع والشهور العديدة قدمرت بالكثيرين وهم في أشد الآلام ؟ إن اللذة التي يدر حدوثها في حالة واحدة ضعيفة أن تبلغ الاقتتان والولع ، يد أنها لا يسما أن تصل - في ساعة واحدة ولو قوت ماد إلى أعلى درجة ومزلة : تشاهد الأرواح وتراخي الأصحاب ويضطرب البناء وسرعان ما تستحيل البهجة إعياء وإرهاقاً . يد أن لآل ينشأ في كثير من الأحيان - نعم في كثير من الأحيان أنها الإله الخيرا - من العذاب والكفاح . وكلما طال الألم غذا كفاحاً وعذاباً حقاً : يستنفد الصبر وتفيض الشجاعة وينتثر الحزن بنا ، وليس ثمة ما نجد من شقائنا اللهم إلا عو عنه أو حادثة أخرى هي العلاج الوحيد لكل شر ، ولكنتنا - عن حماقة طبيعة فينا - نطفر إليها بزعم أعظم وذمور .

[وارد (ديون) ٣٥]

ولكن لكي لا نلح في هذه الموضوعات - وإن تكبر أوضح الموضوعات وأقربها وأهمها جميعاً - ينبغي أن أنبهك يا (كياشس) إلى أنك وضعت هذا الجدل على أخطر طريق ، وأنت تروج - عن غير نقطة منك - بشك مطبق في أهم عقائد اللاهوت القلبي والموحى به . ماذا ! ليس ثمة منيع لتحديد دعامة الدين عالم تسلّم بمسادة الحياة البشرية وتحفظ جميع الألمان وتقاضها وأكدارنا وحماقاتنا بوجود متصل - حتى في هذا العالم - صالح مرغوب فيه ! ولكن هذا يتعارض مع محور كل فرد ونجربته . وهو يتعارض مع سلطة قائمة لا يستطيع شيء

إلا لحظة لو تورنت بالحدود . ومن ثم فالظواهر الشريرة الزاهدة تقوم في مجالات أخرى وفي حقبة مستقلة من الوجود . وعند ما تنفتح عيون الناس تمتد على نظرات أوسع للأشياء سيرون الارتباط بين القوانين العامة على تمامه وسيقتبون غاشمين جود الله واستقامته بين تيه عنايته وتمقيداتها .

(كياشس) : لا ١ لا ١ هذه الاضغاث العسفية لا يمكن قط التسليم بها وهي متصارعة مع مادة الواقع الراضحة التي لا زراع عليها . فني يمكن معرفة هبة من المال إن لم يكن ذلك من معلولات المعرفة ؟ ومتى يمكن التدليل على فرض ما لم يكن ذلك من الظواهر البادية ؟ إن إقامة فرض على آخر هو بناء بناءه في الهواء وأقصى ما نبلغه بهذه التكهات والأوهام هو تأكيد إمكان رأينا لحجب ، ولكن لا يسما ألبنة أن تقيم حقيقته في كنف هذه الشروط .

إن المنهج الوحيد لدم الجود الالهي - وهذا ما آخذ به طائفاً - هو أن ننكر إنكاراً مطلقاً شقاء الإنسان وإنه . إن تصور أنك موله ، وإن نظراتك الحرة هي على الأغلب - واحدة وإن استدلالاتك لتتعارض مع الواقع والتجربة . أن الهبة لأهم من السقم وإن اللذة لأهم من الألم ، وإن السعادة لأهم من الشقاء . وعند الاحضاء نجد أن كدراً واحداً نلقاه نذكرك منه مائة من المباح .

(فيلون) : لو سلنا بوقتك - وإن يكن مفعماً بالملك - ينبغي لك أن تسلّم في الوقت نفسه بأن الألم إذا كان أقل ننكره

أن يفرضنا ، وليس ثمة أدلة قاطعة يمكن تقديمها من هذه السلطة كما ليس يمكن لك أن تحصى وتقدر وتوازن بين الآلام والكذائل جميعاً في حياة الناس والحيوانات أجمعين . وعلى ذلك فيأتمرك مذهب الدين كله على نقطة يلزم من طبيعتها أن تنقز إلى اليقين تتعرف ضمناً بأن ذلك المذهب منفقر إلى اليقين كذلك

ولكن إذا سلنا لك بما لن يمكن قط الاعتقاد به - أو على الأقل - ما ليس في وسعك قط التدليل عليه ، وهو أن سعادة الحيوان أو - على الأقل - سعادة البشر في هذه الحياة تتوق شقاوم ، فأنت مع ذلك لم تقم شيئاً بعد . إذ أن هذا ليس - بأية حال - ما نتوقه من قوة لا متناهية وحكمة لا متناهية وخير لا متناه . لم كان في العالم شقاء ؟ لم يكن ذلك صدقة على التأكد ، فرة مينة إذن . أدلك عن قصد من الله ؟ ولكن الله جواد جوداً كاملاً . أدلك عن تعارض قصده ؟ ولكن الله قاتق للقوة . فليس ثمة شيء يستطيع أن يصرح صلابة هذا الاستدلال الموجز الواضح القاطع اللهم إلا إذا زعمنا أن هذه الموضوعات تتخطى كل قوة بشرية وأن مقاييسنا العامة للحق والباطل ليست تنطبق عليها . وهذا موضوع قد ألهمت دواماً عليه ولكنتك قد تخشيت من البداية في ازدياء وسخط .

ولكنني سأقيم بالانساب من هذا المقل إذ أتق أنكر استطاعتك إلغاي فيه ، وسأسلّم بأن الألم أو الشقاء في الإنسان يوائم القوة والخير في الله - حتى في المعنى الذي تجعله لهذه الصفات - فالألم تقدم

بهذه الفرضيات ؟ إن موادة ممكنة ليست وحدها كافية . يجب عليك أن تدلل على هذه الصفات البحتة التي لا اختلاط فيها من هذه الظواهر المشوشة المخلطة ومنها وحدها . صفة مفعمة بالأمل ! إذا كانت الظواهر بحتة لا اختلاط فيها بومع ذلك متناهية لكانت غير كافية لهذا الغرض . ثم ماذا إذا كانت متصادمة متنافرة أيضا !

ههنا يا (كلياتس) أنم في حجتى ! ههنا أظهر من قبل عندما كنا نتناقش بسدد الصفات الطبيعية للعقل والتدبير احتجت إلى تدقيق الفكرى الميافيزيقى لأطقت من قهنتك . ففى نظرات عديدة إلى العالم وأجزائه ، لاسيا الجوه الأخير ، كان جمال الليل العائية وصلاحتها يؤثران فيما بقوة لا تدافع حتى أن الاعتراضات كلها تبدو . وهذا ما اعتقدتها عليه فى الواقع . مجرد مكابرات ومفسطات ، ومن ثم لا نستطيع أن نتخيل كيف أمكننا أن نقيم وزنا ما لها . ولكن ليس ثمة نظرة للحياة البشرية أو لحالة الجنس البشرى نستطيع أن نستدل منها بمثل هذه القوة التى لا تنهر على الصفات الأخلاقية أو تسلط أن المجرى الإلهى مقرون بالقوة اللامتناهية والحكمة اللامتناهية التى يجب أن تكشف عنها يميون الإيمان لحجب . ودورك الآن أن تسبب المجداف المجهد وتدعم تدقيقناك الفلسفة ضد ما يليه العقل المبرج والتجربة .

الخصيل الكاوى عشر

(كلياتس) : لست أتردد فى التسليم بأنى كنت خليفاً أن أشك فى أن التكرار الكثير لكلمة لامتناه - تلك التى تصادفها عند جميع كتاب اللاهوت - أدعى إلى المدح منه إلى الفلسفة وأنا لنخدم مقاصد الاستدلال بل ومقاصد الدين نفسها إذا اكتفينا ببعض تعبيرات أكثر دقة وتواضعا . فالكليات ، مدهش ، رائع ، عظيم للغاية ، حكيم ، مقدس ، هذه تمزج الخيال امتلاء وافية . وإن أى شئ ، بعدها - فضلا عن كونه يفضى إلى أباطيل - ليس له تأثير على عواطفك أو مشاعرك . وعلى ذلك فإذا تخيلنا فى موضوعنا الراهن عن كل مسألة بشرية ، كما يبدو أن هذا قصدك يا (ديمان) ، فإنى لأخشى أن تتحلل عن كل دين والابنى على تصور ما للوضوح العظيم لمبادتنا . وإذا احتفظنا بالمثاقبة البشرية يلزم لنا أن نجد من المستحيل على الدوام التوفيق بين خليط من الشر فى العالم وبين الصفات اللامتناهية . وأقل من ذلك أن يكون فى وسعنا التبدل على الأخيرة من الأول . ولكن هب أن صانع الطبيعة محدود الكمال ، فهو وإن يكن نصيب اليد عن الجنس البشرى ، إلا أن من الممكن تمثيل الشر الطيبى والخلقى قصيرا مقننا وشرح كل ظاهرة صعبة المراس والإحاطة بها . وحينئذ يمكن اختيار شر أقل لنحجب شر أعظم

والروضخ للشاق لإدراك الغاية المرومة . وفى كلة إن المجرى وقد نظمت الحكمة وحدته الضرورية يمكنه أن يولده مثل هذا العالم الراهن . وأنت يا (فيلون) أنت الذى تتجمل فى المبادرة بالنظرات والتأملات والمثالات يسرى أن أسمع بالتفصيل ودون مقاطعة رأيك عن هذه النظرية الجديدة ، فإذا استأهل انتباهنا كان لنا من بعد أن نعرفه فى فسة أطول من الوقت .

(فيلون) : إن مشاعرى لا تستحق أن تكتم كائنات سر ، وعلى ذلك فأسوق - دون احتقاد - ما يهتلى بسدد الموصوع الزمان . أحسب أننا يجب أن نسلط بأنه اذا استوتق عقل محدود - تفقرته على غير معرفة إطلاقا بالعالم - بأن العالم نتج موجود غاية فى الخير والحكمة والقوة ، لاستطاع من تكهنا به الخاصة - وإن يكن محدوداً - أن يكون سلفا فكرة عنه مختلفة عما نتجده بالتجربة ولست يستطيع ألبنة أن يخال من هذه الصفات التى أحاط بها وحدها أن الملول يمكن أن يكون مفعما بالذلة والشقاء والاضطراب كما يبدو فى الحياة . ولنفرض الآن أن هذا الشخص قد سبق إلى العالم وهو لا يزال مستوتقا من أنه صناعة بشرية لموجود سام جراد . فربما أدهشت خيبة الأمل ، ولكنه لن يعطل ألبنة اعتقاده الأول اذا كان متبينا على حجة راسخة ما دام مثل هذا العقل المحدود يلزم أن يشعر بهاء وجهه ويلزم أن يعلم أنه قد يكون هناك حلول كثيرة لهذه الظواهر التى ظلت أبداً من إساحتها . ولكن لنفرض - وهذه هى حالة الإنسان على الحقيقة - أن هذا الخلق لم

يكن مقننا من قبل بمثل سام جواد قوى بل ترك ليستق هذا الاعتقاد من طواهر الأشياء ، هذا يقرب الأمر تماما ولن يجد قط أى سبب لمل النتيجة . وقد يكون مقننا اقتناعا وأيقا محدود مقلة نصيفة ولكن هذا لن يساعده على تكوير استدلال من جود قوى عليها . مادام ينتمى عليه أن يكون ذلك الاستدلال مما يعرفه لا عما هو على جهل به . وكما بالفت فى ضعفه وجهه انزعجت الثقة من نفسه وردته ارتياها بأن مثل هسده الموضوعات وراء تناول ملكاته . ومن ثم يكون عليك أن تستدل منه من الطواهر المروقة لحجب وتنفيذ جانبنا كل افراض أو تكين نصنى .

اذا أدركت منزلا أو قصرا ليس به شقة واحدة مريحة أو ملائمة ، ونوافذه وأبوابه ومداخذه وعمراه وسلاله وتدبير البناء كله مبعث للفتنة والاختلاط والتمب والظلام وأفى حرارة وأقرس برودة ، لا تنقص - يقينا - صناعته دون حاجة بك إلى لحسه مرة أخرى . وحيثما يبسط لك المهندس دقته ويدل لك على أنه اذا تبدل ذلك الباب أو تلك النافذة لترب على ذلك أرذاه أعظم . وإن ما يقوله قد يكون صدقا على الدقة : فتبدل جوه يقينا تبقى سائر أجزاء البناء كما هى قد يزيد لحب فى القفاص ، ولكنك لا تقنأ ترجم بوجه عام أنه اذا كان للمهندس الخلق والمواهب الخيرة لكان قد رسم خطة للكل ولكن قد عسدل بين الأجزاء بحيث يبالغ هذه القفاص أو أغلبها . وإن جهله بهذه النقطة أو جهلك أيضا مما لن يفتنك قط باستحسانها .

وإذا وجدت تقاطعا أو عيوباً عديدة في البناء لبست المهندس دائماً دون أن تدخل في تفصيل ما . وأوجز فأعيد السؤال : هل يعتبر العالم - بوجه عام وعلى نحو ما يبدو لنا في هذه الحياة - مختلفاً عما قد يتوقعه سلفاً إنسان أو موجود محدود من إله قوى حكيم مجواه ؟ إنه لمن الترض الغريب أن تقرر العكس . ومن هنا استنتج أنه أياً كان تناقض العالم وإتاحته بعض الافتراضات والتكهنات فيما يحصل بفكرة إله كذا فإنه لن يستطيع أبداً أن يدنا باستدلال يقتض بوجوده . إن التناقض ليس منكوراً إطلاقاً ولكن الاستدلال وحسب هو المنكور . والتكهنات - وخاصة حين يثنى اللامتناهى جانباً عن الصفات الإلهية - قد تكفى للتدليل على تناقض ما ، ولكنها لا يمكنها قط أن تكون دعامات لأي استدلال .

يبدو أن ثمة ملازمات أرباباً تعتمد عليها أجزاء الأجزاء جميعاً أو معظمها ، تلك الأجزاء التي تعذب المفروقات الحادة وليس من المستحيل أن تكون هذه الملازمات جميعاً ضرورية لا ممدى عنها نحن نعرف شيئاً مثيلاً جداً عما وراء الحياة الطاعة بل وعن الحياة العامة أيضاً ، حتى أنه ليس هناك تكهن - مهما يكن وحشياً - صدد تدمير العالم إلا احتمال الصواب ، وليس هناك تكهن - مهما يكن مستحيلاً - إلا احتمال الخطأ . وكل ما يورد إلى القسم العشري في هذا الجدل المبني وهذا الغموض ينبغي أن يكون شكياً أو على الأقل يؤخذ على حذر ولا يبيح فرضاً ما أياً كان ، وأقل من ذلك أن يبيح فرضاً لا يدعمه مظهر ما .

من مظاهر الرجحان . والآن ، هذا ما أراه صدد حل الشر جميعاً والملازمات التي يعتمد عليها . فليس ثمة واحد منها يبدو العقل البشري في أقل درجته ضرورياً أو لا ممدى عنه ، كما أننا لا نستطيع أن نفترضها كذلك دون أن يكون هذا إغراقاً في الخيال

إن الملازمة الأولى التي تدخل الشر هي ذلك الابتداء الخلق الحيوان أو تدميره الذي تستخدم فيه الآلام كاستخدام الفئران أحياناً في إثارة المضارقات ، جميعاً للعدل وفي جعلها تسير على سنط بقائها وهو عملها العظيم . والآن ، إن الفذة وحدها في درجاتها المتشعبة تبدو القسم العشري كافية لهذا الفرض . ينبغي أن تكون الحيوانات جميعاً في حالة مطردة من المتاع ، ولكن عندما تلج عليها إحدى ضرورات الطبيعة كالطش والجوع والتعب نجدها تدمر نفس في اللذة بدلاً من شعورها بالآلم ، تدفع به إلى البحث عن ذلك الموصوع الضروري لبقائها . إن الناس ليتبنوا الفذة بنفس الحساس الذي يحتفون به الآلم ، هم - على الأقل - قد فطروا على ذلك . ومن ثم يبدو ممكناً إمكاناً واضحاً أن تنهض بسبب الحياة دون آلم ما . فلم إذن نجد حيواناً ما قابلاً لتأثر بمثل هذا الإحساس ؟ إذا كان في وسع الحيوانات أن تتحرر منه ساعة في مقدورها أن تتم بخص دائم منه ، وهو يفتر إلى ابتداء خاص في أعضائها لتوليد كذلك الابتداء الذي يدها بالإحساس والسمع أو أية حاسة من الحواس . هل لنا أن نتكهن أن مثل هذا الابتداء كان ضرورياً دون ما سبب ظاهر ؟ وهل لنا أن نسند إلى مثل هذا الحدس كما نسند إلى أيقن حقيقة ؟

ولكن قدرة على الآلم لا يسعها وحدها أن تولد الآلم عالم تكن هنالك الملازمة الثانية أصح قيادة العالم بقوانين عامة وهذا لا يبدو ضرورياً بالمرّة لموجود بالغ في كماله . من الحق أنه إذا كان كل شيء تقوده إرادات خاصة لا تقطع مجرى الطبيعة على الدوام ولما كان في وسع إنسان أن يستخدم عقله في سلوكه في الحياة . ولكن أليس ينبغي أن تكون هنالك إرادات خاصة أخرى تدير من هذا القسم ؟ أليس ينبغي أنه أن يحدد كل رزء حيثما كان له وجود وأن يولد كل شيء دون تمهد أو سياق طوي لعل ومعلولات ؟ فضلاً عن هذا يلزم لنا أن تدخل في حسابنا بمقتضى التدبير الزمان العام أن مجرى الطبيعة وإن افترض متظلاً دقيقاً لا يبدو لنا كذلك ، وأن أحداثنا ليست حتمية وأن كثيراً منها يثب ترقيماً . فالصحة والسقم والحدود والمخاض وعدد لاحصر له من الأحداث الأخرى عليها مجبولة ومتوقعة ، لها قوّة عظيمة على حظوظ الأفراد وعلى رفاهية المجتمعات ، بل والحياة البشرية جميعاً تعتمد - على نحو ما - على مثل هذه الأحداث . ومن ثم فالوجود الذي يعرف المتابع الحقة للعالم يستطيع في يسر وإرادات خاصة أن يحيل هذه الأحداث جميعها خيراً على البشرية ، ويحمل العالم برمه سعيداً دون أن يكشف عن نفسه في أي حمل من هذه الأعمال . إن الأسطول بما له من أغراض فاضة للجنح قد يصادف دواماً ربحاً مائة ، والأمراء الأخيار يصنعون صحة جيدة وحر طويلاً ، والأشخاص الذين ولدوا للقوة والسلطان لهم أرواح جيدة واستعدادات فاضلة . إن الله من مثل هذه الحوادث إذا قادتها

قيادة منتظمة حكيمه خلقة أن تقلب وجه العالم ولا تبدو مصطحة مجرى الطبيعة أو مشوشة سلوك البشر أكثر من التدبير الزمان للأشياء حيث لعل خفية متنوعة مركبة . فثمة ملازمات بسيطة لمخ (كالجول) (١) في طفولته خلقة أن تحيله (تراجان) (٢) . وإن موجة أهل من سائر الأمواج لو ابتليت (قيصر) وحظه في قاع المحيط كانت خلقة أن تبقى الحرية لجوء كبير من البشرية . يمكن أن تكون هنالك - وهذا ما ينبغي لنا معرفته - أسباب خفية لعدم تدخل العناية الإلهية على هذا النحو ولكنها مجبولة لنا ، يد أن افتراضاً واحداً بأن مثل هذه الأسباب موجودة قد يكون كادياً لاتخاذ الاستدلال الخاص بالصفات الإلهية ، ولكنه ليس يكفي البتة على التأكيد لإقامة ذلك الاستنتاج . إذا كان كل شيء في العالم يسيره قوانين عامة وإذا جعلت الحيوانات قايمة للآلم ليعد من الاحتمال ألا يحدث بعض الشر في الاستحالات المتشعبة للادة ، ومن الشكاف والتعارض المتوهجين بين القوانين العامة . ولكن يصدر أن يحدث هذا إن لم تكن هنالك الملازمة الثالثة التي افترضت ذكرها ، أصح الاقتصاد العظيم الذي توزع به القوى والملازمات في كل موجود . إن أعضاء الحيوانات جميعاً وقدراتها لتوافقة فيما بينها وصالحه لحفظ

(١) أحد أبطال الرومان . اعتبر بقتل العن . امتدحه به (٢٧ - ٤١ م)
(٢) أحد أبطال الرومان . امتدحه به (٩٥ - ١١٧ م) .
استشهد النسيجين - (المترجم)

بقائها حتى أنه يقدر ما يصل إليه التاريخ والرواية لم يظهر نوع واحد لقرص في العالم. فكل حيوان مواهبه اللازمة ولكن هذه المواهب متنوعة بتدبير دقيق حتى أن قصاً ملحوظاً فيها يقص على المخلوق قضاء مبرماً. فحياتها تزيد قوة ما كان هناك خفض متناسب معها في القوى الأخرى. فالحيوانات التي تنفوق في السرعة يموهها - بوجه عام - القوة. والحيوانات التي تملك السرعة والقوة إما أن يكون في بعض حواسها نقص أو تضعف لمطالب لا تقوى. إن الجنس البشري - وميزته الرئيسية العقل والخصاصة - هو من بين جميع الأجناس أوجها وأقصاها في المزايا البدنية. فليس للناس ملابس وسلاح وطعام ومسكن وأية نعمة من نعم الحياة إلا ما يديرون به إلى حدتهم وبراعتهم. وبالاختصار تبدو الطبيعة وقد حسبت حساباً مضبوطاً للضرورات عطاياها وتبدو أشبه سيد صارم، قد رودتها بقوى ومواهب تزيد قليلاً عما هو كاف على الدقة لهذه الضرورات. إن آباء كريمة الزود المصنوع بمجموعة عظيمة كي يصونه من الأحداث ويضمن له السعادة والرهابة في أسوأ الملاحظات. إنه لا ينبغي أن يتكون كل مجرى من مجارى الحياة عموماً بالمواهي بحيث أن أقل انحراف عن الطريق السوي - من خطأ أو ضرورة - يمتد وقوعاً في الشقاء والحراب. كان ينبغي أن يكون هناك احتياطي أو ضرورة تتوكل على السعادة، والآن تكون القوى والضرورات قد مضطربا بتدبير بالغ الصرامة. إن صانع الطبيعة قوى بما يبدو التصور وإن قوته لتتخالف عظمية لا تنفذ على الإطلاق. ويقدر ما تستطيع الحكم ليس هناك من سبب لجملة يلحظ هذا القصد الدقيق

في معاملاته مع مخلوقه. وكان الأول - إذا كانت قوته بمجودة تماماً - أن يخلق عدداً أقل من المخلوقات ويعدّها بمواهب أكثر. لسعادتها وبقائها. إذا لا يمتد البتة الذي يقوم ببناء يتحدو ما لديه من مواد تمكنه من إنجائه، أقول إننا لا نمتد هذا البتة متحسراً.

ولعلنا أغلب أرزاء الحياة البشرية لسنا مطالب بأن يكون للإنسان أجنحة الفرس وسرعة الإبل وقوة الثور وأذرع الأسد وزعانف السمك وأقل من ذلك أن مطالب له بصفاة ملك. أي لا تقصر على زيادة في قوة واحدة أو ملكة واحدة من قوى نفسه أو ملكاتها. ليكن للجنس كله نعمة أعظم للصناعة والعمل وتبشع ونشاط دمي أقوى واتصال بالعمل ومواظبة أكثر أطراًداً. ليكن للنوع كله اجتهد طبيعي يتخذ ما يستطيعه أفراد عديدين بالعادة والتأمل. وأضع النتائج - خاصة من الشر - هي النتيجة المباشرة الضرورية لهذه الموهبة. إن أغلب شرور الحياة البشرية الخلقية شأن الطبيعة قلها من الكسل. ولو برىء جفنا البشري - في التكوين الأصل لنظامه - من هذه الرذيلة أو هذا القصور لتبع ذلك حل الفور استئثار كامل الأرض وارتفاع للفنون والصناعات وتحقق منضبط لكل عمل وواجب. وليلع الناس في الحال - بلوغاً تاماً - تلك الحالة الاجتماعية التي تصل إليها - وصولاً تاماً - غير الحكومات انتظاماً.

ولكن لما كان الجيد قوة وأقبح القوى جميعاً فإن الطبيعة تبدو

مبأة - بما ينسق مع مبادئها المألوفة - لأن نعمة الإنسان بيد غاية في الضيق وهي أقرب أن تعاقبه في شدة على نفسه فيه من أن تكافئه على ما يليه منه. لقد أبدعت نظامه بحيث أن الضرورة بالغة العنف وحدها هي التي تضطره إلى العمل. وهي تستخدم كل حاجاته الأخرى لتفهر حاجة الاجتهاد. فمرا حوثياً على الألف - وأمدته بقط من ملكة استصوبت أن تحرمه منها حراماً طبيعياً. وهنا قد نلّم بأن مطالبنا بالغة التواضع، ومن ثم فهي أقرب إلى العقول. فإذا طلبنا مرامياً لحكم أهل وقاد أسمي، لحاسة للجمال أدق ولحساسية للوجد والصدقة أدق، قد يقال لنا إننا ندهي إدماء فيه خروج على التقوى ونجترق لنظام الطبيعة إذ نريد أن نرق بأنفسنا إلى مرتبة أهل الوجود، حتى أن الغيابة التي نحتاجها - إذ تكون غير موافقة لحالتنا - لن تكون إلا وبالاً علينا. ولكن من الصبر - ولدى الجرأة على تكرار ذلك - أننا إذ نقيم في عالم مغم بالخناجات والضرورات وحيث كل موجود وكل عنصر - على الأغلب - هو إما عدو لنا أو يأبى علينا الصون من الصبر - الأمر كذلك أن يكون لنا اجتيازنا الخاص الذي نصارع به وأن نحرم من تلك الملكة التي يسما وحدها أن تنفرد هذه الشرور العديدة.

والملامة الرامية التي يشأ منها شقاء العالم وشره هي عمل منابع آلة الطبيعة غير المنصبة ومبادئ. ويلزم أن نقر بأن نعمة أجزاء قليلة من العالم يبدو أنها لا تستخدم مراماً ومحرماً لن يؤدي إلى نقص بيمين

واضطراب في الكل. إن الأجزاء لتقوم جميعاً بها وليس يمكن أن يمتد أحدها دون تأثير في سائرهما بدرجة أعظم أو أقل. ولكن يجب أن يلاحظ في الوقت عينه - إن لا أحد من هذه الأجزاء أو المبدىء - مهما يكن من فائدة - متوافق توافقاً دقيقاً بحيث يحافظ بدقة على هذه الحدود التي تلخص فيها منفعتها، ولكنها جميعاً خليقة في كل مناسبة أن تدفع إلى أحد الطرفين أو إلى الطرف الآخر. ولا مريم أن يتخالف هذا التنازع العظيم لم ينلحق حقن أخير من الصانع، فكل جزء قد أُنجز إنجازاً صليلاً واللبسات التي يتحقق بها بالغة في لجأيتها. وعلى ذلك فالرياح لائمة لحل الأبخرة على طول سطح الكرة وللمساعدة الناس في الملاحة، ولكن كم تصير وية إذ ترتفع إلى عواصف وأعاصير؟ والامطار ضرورية لتنقية نباتات الأرض وحيواناتها ولكن كم تشفع؟ وكم تتجاوز الحد؟ والحرارة لازمة للحياة والإنبات جميعاً ولكنها لا توجد دائماً بالنسبة الواجبة. وصحة الحيوان ورفاهيته تتوقفان على موج أموجة الجسم وعصارته وإفرازها. ولكن الأجزاء لا تتجبر بانتظام وظيفتها الخاصة. وأي شيء أريد من عواطف النفس جميعاً من طموح أو غرورة وغضب؟ ولكن كم تفرق حدودها وتسبب أعظم رجبات في المجتمع؟ ليس نعمة شيء مفيد في العالم الاواستحال ويلا في أحيان كثيرة بالفراط أو التفريط، وليست الطبيعة مصونة - بالذقة اللازمة - من كل اضطراب وخطأ. وقد لا يكون عدم الانتظام قطاً من الضمان بحيث يدم جنساً ما. ولكنه يكتفي غالباً لطف الأفراد في الحراب والشقاء.

وعلى ذلك فعل اجتماع هذه الملازمات يعتمد الشرع الطبيعي كله أو أعظم قسم منه. وإذا كانت المخلوقات الحية جميعا غير قادرة على الألم أو إذا كان العالم تديره إرادات جزئية لها حركات في وسع الشرع قط أن يجد مدخلا إلى العالم. وإذا كان الحيوانات وقسرة عظيمة من القوى والملازمات تعدو ما تستلزمه الضرورة المناسبة، أو إذا كانت حايك العالم ومبادئه المدينية قد ميضت على نحو من الدقة بحيث تحتفظ دوماً بالاعتدال والوسط الصحيحين لقل الشرع بالنسبة إلى ما نضع به الآن. فما الذي نقوله إذن هذه المناسبة؟ هل نقول أن هذه الملازمات ليست ضرورية وأنه كان يمكن تبديلها عند ابتداء العالم؟ هذا القرار يبدو بالغا في غروره بالنسبة للمخلوقات المصنوعة.

لكن أكثر تواضعا في نتائجنا ونسلم بأنه إذا كان يمكن أن يوضع جوداته - أي جودا مشابهة للوجود البشري - ونحنا قليلا بأسباب محضة لما كانت هذه الظواهر - مهما تكن شائعة - بكافية لقلب ذلك المبدأ بل يمكن في سر - على نحو مجهول - أن تكون مواضعة له. ولكن لتقرر أن هذا الجود لا يمكن موضوعا ونحنا قليلا بل يجب أن يستعمل عليه من الظواهر فليس يمكن أن تكون هناك أسس لهذا الاستدلال فيما هناك عدد عديد من الأجزاء في العالم، وبينما هذه الأجزاء كان يمكن أن تعالج بقدر ما يسمح القيم البشري الحكم على هذا الموضوع. وأما شاك بالحد الذي يمتلي أسلم بأن الظواهر السوية - بحرف النظر من استدلالنا - يجب - قد تكون موائمة لمل هذه التي اقترعتها

ولكنها لا تستلعب قط على التأكيد أن تدل على هذه الصفات. جمل هذه النتيجة لا يمكن أن تنتج من الشرع، ولكن يلزم أن تتأ من الظواهر ومن تقننا في الاستدلالات التي نستلعبها من هذه الظواهر.

أنظر إلى العالم حولك، أي فيض عظيم من الموجودات الحية المنتظمة الحاسة الشائعة، إنك لتحب من هذا التنوع المائل وهذا الحسب. ولكن تأمل بعض الشيء تأملا أدق في هذه الموجودات الحية وهي الموجودات الوحيدة الجديرة بالاعتبار، كم هي مختصة بدمر بعضها بعضا، وكم تمنع حبيها عن إسماع نفسها، وكم يعتزها ويمقتها من يشهد ما، إن الجميع لا يملئون شيئا لهم إلا طيبة عياء انبت فيها مبدأ جوي عظيم ونفطت من حبرها أطفالها المتوردين العاجزين دون فطنة أو وهاية أبوية

هنا بيننا لنا مذهب (المانوية) (١) كفرض ملائم لحل الإشكال ولا ريب أنه أصح - على ما يظهر - في بعض المواطن وأقرب إلى الرصان من الفرض الشائع، إذ يفسر تفسيراً ميسورا الأمرج الرعب الذي يظهر في الحياة بين الخير والشر. ولكننا إذا اعتبرنا من جهة أخرى الانساق الكامل والاتفاق بين أجزاء العالم لما انكشف

(١) مؤسس هذا المذهب (مانيه) وهو يفسر امتزاج الخير والشر في العالم بأن يسب خلق العالم إلى مسمان - شاة في ذلك شأن ذواته - أصحاً خير في حوره وموافقة أو الروح أو البرز والآخر شر هو الشيطان أو الماده أو الفضة - (الترجم)

لنا بينها علامات على الصراع بين موجود حقود وموجود جواد. بل أن هناك لتمازجا بين الآلام والذائد في مشاعر المخلوقات الحاسة، ولكن ليست عمليات الطبيعة جميعا تنحصر عن تناقض بين المبادئ، بين الحار والبارد والرطب واليابس والخفيف والثقيل؟ إن النتيجة الصحيحة هي أن المصدر الأصل للأشياء جميعا يقف موقف سوية من جميع هذه المبادئ. وليس يفضل غيرا على شر ولا حارا على بارد أو اليبس على الرطوبة أو الخفة على الثقل.

يمكن أن نضع فروضا أربع تختص بطل العالم الأول:

أ) أنها غيرية كاملة، أو أنها مشيئة على شر كامل، أو أنها متعارضة قويا غير شر، أو أنها سالية من الخير والشر معا. والظواهر المتزجة لا يمكن أبنة أن تدل على المبدأين الأولين غير المتزجين. واتساق القوانين العامة وثباتها يبدو متعارضا مع الثالث. ومن ثم فالفرض الرابع يبدو أرجحها إلى حد بعيد.

وما قلته بصدد الشر الطبيعي ينطبق على الشر الأخلاقي مع تعديل يسير أو من غير تعديل. وليس لدينا سبب للاستدلال على أن استقامة موجود أصحى فيه الاستقامة للبشرية اللهم إلا أن جوده يشبه جود البشر. نعم قد يظن أنه ما قىء لدينا علة أعظم لتسب عنه المشاعر الأخلاقية على نحو ما نضعه - هسا ما دام الشر الأخلاقي في رأي

الكثيرين أبعد في تفوقه على الخير الأخلاق من الشر الطبيعي الخير الطبيعي.

ولكن حتى إذا لم يعلم هذا وحتى إذا اعتبرت القضية في الجنس البشري أرفع من الردية فإنه ما دامت الردية قائمة في العالم فسيتمكم كثيرا أنها المشيئة أن تلتبسوا تفسيراً لها. يتهم عليكم أن تسبوا إليها علة دون أن تولدوا بالعلة الأولى. ولكن لما كان يلزم لكل ممول علة ولعدة العلة علة أخرى تختم عليكم إما أن تسبوا في الطريق إلى ما لا نهاية أو تقفوا عند المبدأ الأصلي وهو العلة الأخيرة للأشياء جميعا.

(ديان): (مناخا)

رويدك أرويدك إلى أين يجمع بك خيالك؟ لقد اتفقنا معا على التذليل على عدم الاحاطة بطبيعة الموجود الإلهي وعلى دحض مبادئ (كلياتس) الذي يقيس كل شيء على قاعدة الإنسان ومياده. ولكنني أجذك الآن تندفع إلى موضوعات كلها فسق وإلحاد وتخون تلك العلة المقدسة التي لاج أنك رضيت بها. هل أنت إذن هدو في السر، أعظم من (كلياتس) نفسه؟

(كلياتس): وهل فأنك إدراك هذا؟ صدقني يا (ديان) إن صدقك (فيلون) كان يتسل متد البداية على حسابنا ويلزم أن نتعرف بأن استدلال لا هوتا السوفي الطائس قد أمده بدرجة

حظه السخرية منا . فالنقص الشامل في العقل البشري ، وعدم الإحاطة بملافا بالطبيعة الإلهية ، والفقاء العظيم العام والاعم الأعظم في الناس ، هذه موضوعات غريبة يتوهمها في ولة أئمة اللاهوت المتصجون وأساتذته . ففي هصور الغفلة والجهالة كان من المأمون الرضى عن هذه المبادئ . وربما لم يكن هنالك آراء في الأشياء أنسب للبروز بالخرافة من إثارة دهشة البشر العمياء وتزعزيعهم وتسميم .

(فيلون) : [علة ؟]

لاشكاًل هكذا في لوم جهالة هؤلاء السادة الموقرين . انهم ليعرفون كيف يدلون أسلوهم مع الزمن . فقد كان أشيع موضوع لاهوتي في الأرمية الناصرة هو التسليم بأن الطبيعة البشرية غرور وشقاء ، والتحويل في جميع العرود والآلام التي تلحق بالناس . ولكن في السنين الأخيرة بدأ أئمة اللاهوت يدلون من هذا الموقف ويأخذون — وأن يكن في شيء من التردد — بأن هنالك خيرات أكثر من الشرور ولذا نأخذ أكثر من الآلام حتى في هذه الحياة . وعند ما اعتنق الدين اعتقاداً تاماً على المواجه والتورية ظن أن من المناسب تشجيع الحزن إذ لا يقبل الجفس البشري على البهوى إلى القوى العليا إلا في ذلك الموقف . ولكن بعد أن تعلم الناس الآن كيف يكونون المبادئ ويسوقون النتائج كان حتماً تغيير هذه المعائل والاتضاع بمثل هذه الحجج التي قد تحتل شيئاً من التسليم والنقص على الأقل . هذا التنوع مماثل — ومن نفس المبادئ — لذلك الذي لاحظته من قبل بعدد الشكبة .

« ومن تلك حيث [فيلون] في النهاية على روحه المارضة وعن انتقاده للآراء الموسوعة ، ونكسرت كنت أستطيع أن ألاحظ أن [ديالان] لم ينج بالمرة المرة الأخير من الحدث وقد انتهر الفرصة عند فترة لصيرة جداً فتوهم الجمة منذراً صفة ما » .

الطبيعة وصانعها اللذين يستصيان على التفكير ثمة فرض ثمة قصد ثمة تدير يؤثر في كل مكان في أكثر المفكرين إجمالاً وأشدم غفلة ، وليس ثمة إنسان يستطيع أن يتحسن بمذاهب باطلة ليحبه ثمة مبدأ عام راسخ في المدارس حتماً — من محض تأمل أعمال الطبيعة دون أى غرض ديني — هو أن الطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً وبالاتضاع الثابت بهذه الحقيقة لا يمكن أن يتنحى مشرح لاحتض صمواً جديداً أو قناة جديدة إلا إذا اكتشف كذلك منطقة هذا العضو وقصد . ومن دعاءات المذهب الكورنيكي الطبيعة هذه القاعدة : إن الطبيعة تعمل بأبسط المتاح وتنفق أنسب الوسائل لأية غاية . ويجمع الفلكيون في الغالب دون أن يفكروا في هذه القاعدة ، هذه الدعامة القوية للقوى والدين . ويلاحظ مثل هذا في أجواء أخرى من الفلسفة . وكل ذلك فكل العلوم تكاد تقودنا — عن وعي منا — إلى التسليم صامع أول عاقل ، وكثيراً ما يعظم سلطانها إذ كانت لا تبيح إبانة مباشرة عن ذلك القصد .

وإنه ليلزم أن أجمع (جالينوس)^(١) يستدل بعدد بنية الجسم البشري فهو يقول^(٢) إن تشريح إنسان ليكشف ما يربو عن ٦٠٠

(١) (جالينوس) ، عالم بصرى يوناني (١٢١ — ٢١٠ م) قام بالكلمات عامة في مجال التشريح
(٢) De formatione foetus.
De Foetuum Libellus. cap. et Galeni Opera
أعطى في تلك المفاصل طلبة كبريت من ٢١٥ p. 691-99 (1822) Lib. in. p. 691-99
(الترجمة)

الفصل الثاني عشر

« بعد دجيل (ديالان) واسل (كياش) و (فيلون) حديثها على النحو التالي » :

(كياش) : « إنني لأخشى يا صديقنا أن تبيل ميلا حثيلاً إلى إثارة هذا الموضوع من الحديث بين الجماعة ، وأقول الحق يا (فيلون) إنني لأفضل أن أتناقش مع أحداً على أفراد في مثل هذا الموضوع الرقيق الفائق . إنني روحك في الجدل — مقنونة بمقتك الخرافة السوقية — تنص بك أشواطاً سيئة ، فأنت حين تشمل بمجة لاتفي شيئاً مقدساً موثقاً حتى في ظرك .

(فيلون) : « ينبغي لي أن أعترف بأنني لعل حذراً في موضوع الدين الطبيعي متى في أى موضوع آخر ، ذلك لأنني أعرف أنني لا أستطيع البتة في ذلك البحث أن أمد مبادئ رجل سليم الذوق ، وكذلك لأنه ليس ثمة امرؤ — وأنا وأنت من هذا — أبدو في عينه سليم الذوق يخطئ مقاصدي . وأنت يا (كياش) على التخصيص وأنا أعيش مملوك ألفه طليقة ، أشعر بأنه رغم الحرية في حديثي وعجبي للحمج القريبة طيس هنالك من هو أحق من إحساساً بالدين المخطئ في نفسى أو أشد تعقلاً بالوجود الإلهي كما يتكشف العقل بين ابتداع

عجلة مختلفة وإن من يتأمل هذه على ما يجب يجد أن الطبيعة لا بد وأن تكون قد وافتت في كل منها بين عشر ملايات مختلفة على الأقل لكي تدرك الغاية التي شرحتها . أعني بذلك الشكل المناسب ومعناطية صحيحة واستعدادا موبيا للغايات المديدة ووضعا أعلى وأسفلا لكل واندماجا ملائما للأصواب والأوعية والشرابين المديدة بحيث لا بد لنا يزيد من ستة آلاف غاية ومقصد أن تكون مكونة ومتحققة في العضلات وحدها . وهو يحصى المظام ٢٤٨ والأغراض المديدة التي تهدف إليها في بنية كل يزيد على أربعين . يا اللبنة الهائلة عن التفنن في هذه الأجزاء البسيطة المتجانسة ! ولكننا إذا تأملنا الجلد والروابط والأوعية والشد والأرجة وأطراف الجسم وأعضائه المديدة فأى دهشة لا بد وأن تمرونا من عدد الأجزاء المتوافقة توافقا فنياً ومن تمقدها وكلما تقدمنا في هذه الأصناف كنتنعمنا متحمداً جديدة للفن ولكننا نلاحظ على يد - في بنية الأجزاء الباطنية وفي تدير الملح وفي آلة الأوعية البنية مشاهد نمدو ما لنا . كل هذه الأناجين تتردد في كل نوع مختلف من أنواع الحيوان في تنوع رائع وناسب دقيق ينسق مع مقاصد الطبيعة المختلفة في تكوينها لكل نوع ، وإذا لم تستطع عدم دقة (جالينوس) - وحتى حين كانت هذه العلوم الطبيعية ناقصة - أن تخاوم مثل هذه العناصر القوية فأية مرتبة من مراتب العناد المنضبط لا بد أن يصل إليها فيلسوف من هذا العصر يستطيع أن يشكك الآن في عقل سام ؟

لئن كنت قد التفتت بأحد هؤلاء - وأشكر الله على أنهم نذرة -

لسأله : هب أن كان هنالك إله لم يكشف عن نفسه كشفاً مباشراً لحواستنا أكان في مكتته أن يدل على وجوده بأداة أقوى مما يتبدى في وجه الطبيعة ؟ بل ما إذا كان يوسع موجود إلهي هذا شأنه اللهم إلا أن ينقل التدبير الزامن للأشياء ويجعل الكثير من أفايته من البساعة بحيث لا تخفى على الأغبياء ويقدم لمحات لأفانين أعظم تبرهن على سموه الخائل ويوجب أفاين كثيرة عظيمة حجباً تاماً عن مثل هذه المخلوقات الناقصة ؟ والآن طبقاً لقواعد الاستدلال الصحيح جميعاً لا بد من التسليم في غير جسدال بكل واقعة مدعومة بكل الحجج التي تلجها طبيعتها حتى وإن لم تكن هذه الحجج في ذاتها عديدة أو قوية . وما أبلغ ذلك في الحالة الراهنة حيث لا يسع خيالاً بشرياً أن يحصى عددها ولا فهماً أن يقدر قوتها .

(كياش) : وأضيف - فوق ما حذرت أنت تحيداً طياً - أن إحدى الميزات العظيمة لمبدأ الاعتقاد هو أنه المذهب الوحيد لهذه الحقيقة الذي يمكن أن يكون معقولا وتاماً . بل ويمكنه كذلك إمكانا مطلقاً أن يحتضن بمائلة قوية لكل ما نراه كل يوم ونحس به في العالم . إن مقارنة العالم بآلة من ابتسعاد البشر لمقارنة بالآلة الموضحة وطبيعة ويررها أمثلة عديدة لنظام والتدبير في الطبيعة حتى أنها تؤثر - لا محالة - تأثيراً مباشراً في المفاهيم المنزعة جميعاً وتتوصل إلى رحائب المطلق عنها . وإن من يحاول توحيه هذه النظرية لا يسعه أن يدعي النجاح في الاستماع عنها فهوها دقيقة معددة . (إنه ليكتبه إذا

بأدر بالشكوك والإشكالات ووصل بآراء من الأشياء ثابته مجردة إلى ذلك التلخيص للحكم وهذا هو الحد الأقصى لرغباته . ولكن فضلاً عن أن هذه الحالة للذين هم في قسما غير مقنعة فليس في وسعنا البتة أن نقف ثابتة أمام هذه المظاهر القوية بحيث نرجعنا ربطاً متصلاً بالفرض الذي . من الممكن الطبيعة أن تلج في إصرار وعناد نظاماً زائفاً باطلاً ، ولكنني لا أظن أن نظاماً يحارص نظرية يجوزها سبب قوي واضح ونزعة طبيعية وتسلم بآكر ، أقول لا أظن أن من المستحيل إطلاقاً اعتناق نظام كذا أو الدفاع عنه .

(فيلون) : إن تعليق الحكم في هذه الحالة يمكن في نظري ، إمكاناً ضئيلاً حتى أنني لظن أن أشك في أن نغمة ما يقرب من مساجلات لفظية قد دخلت في هذا الجدل أكثر مما يجزى لنا عادة . أما أن أعمال الطبيعة تشبه شيئاً عظيمياً ثمرات الفرس فهذا واضح ، وطبقاً لقواعد الاستدلال جميعاً ينبغي لنا إذا كنا نتناقص بصددها أن نحاسب بأن نقابها متناسلاً قائم بين علما . ولكن لما كان هنالك كذلك اختلافات ملحوظة حتى لا أن تقترض اختلافات متناسلة في المثل وينبغي لنا بوجه خاص أن نعمل للغة الاسمي درجة من القوة والقدرة أعلى من أي درجة لما لاحظناها - في الجنس البشري . هنا إذن يتأكد وجود الله بالفعل فأكدوا واضعاً ، وإذا نسبنا أن نستطيع - استناداً إلى هذه الماتلات - أن نسميه حقاً ذهناً أو ذكراً رغم الاختلاف التاسع الذي قد يفترض بحق بينه وبين الأذهان البشرية ، أليس هذا إذن بعض جدال لفظي ؟ ليس ثمة

الإنسان يستطيع أن يشكر الماتلات بين المخلوقات . إننا لنكاد نستطيع أن نكبح أنفسنا عن البحث في هل يندر إمكانها . والنتيجة المشروعة من هذا البحث هي أن بين المثل مماثلة أيضاً ، وإذا لم تنتج بدوهة الله الأولى الأسى لها أو أنه بل تروم تبرير التعبير فإذا يسحاً أن ندهره اللهم (لا ذهناً أو فكراً يفترض بحق أنه يشبه شيئاً ملحوظاً ؟

إن جميع الناس ذوي العقل الراجح يزودون بالمساجلات اللفظية التي تفرق فيها الأبحاث الفلسفية واللاهوتية . وقد وجد أن العلاج الوحيد لسوء استعمال الالفاظ لا يتأتى إلا بتعريفات واضحة وضبط تلك الأفكار التي تدخل في أي حجة والاستعمال الدقيق للمنطق للحدود المستخدمة . ولكن هنالك نوعاً من الجدال ينطوي - تيمناً لطبيعة اللغة والأفكار الإنسانية - على غموض دائم ، ولا يمكن قط بأي احتياط أو أية تعريفات أن يبلغ شيئاً معقولاً أو دقة مقبولة . هذه هي المجادلات في درجات أية كيفية أولملاية ، ففي وسع الناس أن يتناقضوا إلى الأبد فيما إذا كان (هانيبال)^(١) رجلاً عظيماً أو عظيماً جداً أو عظيماً إلى حد فائق ، أو أي درجة من الجلال بلغت (كليوباترا) وبأية

(١) (هانيبال) . (٢٤٧ - ١٨٣ ق . م) القائد القرطاجي المشهور الذي دوح روما وكانت حياره « هانيبال » على الأبواب » فخرج كل روماني « قال أحد قواده له « أنت تعرف كيف تنصر ولكنك لا تعرف كيف تنفع بأصارك » . (الترحيم)

هجرة (نقي) أو (تكيدس) ، دون أن يصلوا بالمجادلة إلى قرار ما . قد يفتق المفسرون هنا في المعنى ويختلفون في الألفاظ أو العكس ولكنهم لا يستطيعون قط تحديد ألفاظهم حتى ينفذ كل منهم إلى ما يجبه الآخر ، ذلك لأن درجات هذه الكيفيات ليست مثل درجات الكم أو العدد يمكن أن تخضع لأي قياس دقيق بنحو ميسر في المجادلة . وسيظهر بأيسر بحث أن الجدل في الاعتقاد من هذه الطبيعة ليس إلا جدالاً لفظياً أو قد يكون إذا أمكن أشد غوصاً بدرجة لا تخلص منها .

إنني لأسأل المؤمنين ليس يسلم بخلاف عظيم لا يقاس - لأنه لا يحاط به - من الذهن الإنجلي والذهن البشري ؟ وكلما كان أكثر تقوى كان أكثر استعداداً للرد بالإيجاب وكان أكثر ميلاً إلى تقسيم الخلاف ، بل إنه ليقرر أن الخلاف قد بلغ حداً لا يمكن منه زيادة تجسيمه . ثم أقول بعد ذلك إلى الملحد وهو كما أقرر ليس ملحداً إلا بالإسم وليس يمكن قط أن يكون جامداً . ثم أسأله أنيس من الارتباط والتعاطف البادئ في أجزاء العالم أن هناك درجة معينة من المماثلة بين عمليات الطبيعة فيما في كل حالة وفي كل عصر ، ليس فساد اللق وتواله حيران وبني فكر بشري ، البتة هذه طاقات قد تقبه من بعيد بعضها البعض . حال أن يستطيع التفكير ، إنه ليأبى بالتسليم . وما أن أصل إلى هذا الإدعاء حتى أدفع به قدما في تهقيره وأسأله أنيس من الواجب أن المبدأ الذي رتب النظام في العالم أولاً ولا يزال يحتفظ به يحصل أيضاً

مما تبدو تصوراتنا لعمليات الطبيعة الأخرى ، ويجعل بين سائرهما مماثلة لتدبير الذهن والفكر البشري ؟ وأياً كان تردده يتعمق عليه أن يبدى موافقته ، ثم أصبح في هذين الخصمين مما : أين إذن موضوع السجال ؟ يسلم المؤمن بأن العقل الأحيل يختلف جدا عن العقل البشري ويسلم الملحد بأن مبدأ النظام الأحيل يعمل شيئاً من المماثلة البعيدة للعقل البشري ، هل تشتتجرون يا سادة على الدرجات وتزجون بأعسكم في نزاع لا يسلم إلى معنى دقيق وبالتالي لا يؤدي إلى أي تحديد ؟ إذا كان لكم أن تلمزوا العناد فليس لي أن أدهش إذ أراكم تنقلون من جانب إلى آخر ، فبما هوئلك المؤمن من ناحية في انتفاء التشابه بين الموجود الأسمى وبين المخلوقات الرائعة الخاصة المتغيرة المضطربة الغاية ، يحطم الملحد من ناحية أخرى مماثلة بين عمليات الطبيعة فيما في كل حقبة وفي كل حالة وكل وضع . تأملوا إذن أين تقع النقطة الحقيقية للنزاع وإذا لم يسمع أن تدهوا مساجلتكم جانبا لجانبا - على الأقل - أن تيرثوا أحسكم من حقدكم .

وهنا يا (كلياتس) يتعمق عني أيضاً أن أقر بأنه كان لأعمال الطبيعة مماثلة لمخلوقات فنتا وابتدعنا أعظم من مماثلتها لمخلوقات جودنا وعدلتنا فلنا حتى استخلص أن الصفات الطبيعية قد مضاهية لصفات الإنسان أعظم من مشابهة صفاته الخلقية لصفات الإنسان . ولكنكم إمامي البقية ؟ ليست إلا أن كيفيات الإنسان الخفية انقص في نوعها من استعداداته الطبيعية . إذ كما نسلم بأن الموجود الأسمى كامل كالأطلاق تماماً

لأن ما يختلف أعظم اختلاف عنه يكون هو الأبعد عن المقياس الأسمى للاستقامة والكمال^(١) .

هذه يا (كلياتس) معارفي المخطئة من هذا الموضوع وأنا كما تعلم لا أقتأ عاقفا عليها مسزاجاً على الدوام . يد أن مقى العفراقات الضمنية يبدل توقيري للدين الحق وإنني لأستعمر لذة خاصة - وأعترف بهذا - في أن أدفع هذه المبادئ إلى الإعلان أحيانا وإلى المنعصة أحيانا أخرى . وأنت تضرع أن المتصيين جميعاً برغم كرامتهم القديسة للأخيرة - وهي أشد من كرامتهم لأول - موصومون جميعاً جميعاً على حد سواء .

(كلياتس) : أنا أنزع منزعاً مضاداً ، فالذين حتى لو كان

(١) يبدو واضحا أن طائفة من المشكك والديجاليين من مساحة لفظية تماماً أو هي على الأقل تبنى رديجيت الشك واليقين التي يبنى لنا أن نضم بها في كل برهة . ويحل هذه المسائل على على الدعوة لفظية في قراوها ولا تتبع أي تحديد دقيق . وليس ثم من فيلسوف ديالكتيكي يشكر أنت هناك الإشكالات بحصل بالمرس والمتمسك وأن هذه الإشكالات لا تحمل على الإطلاق منتج متعلق منطق . وليس ثم من شك يشكر أنها هم تحت ضرورة سلفة - بصرف النظر من هذه الإشكالات - في التفكير والاعتقاد والبرهنة فيما ينصل جميع حروب المرموعات بل وفي المواجهة أحيانا في حجة وشبان . ومن ثم فالخلاف الوحيد بين هاتين التفسيرين - إذا استأملت كل منهما هذا الاسم - هو أن الشك يلج - من مادة ومعى أو ميل - أسلم على الإشكالات ويضع الديالكتيكي لأسباب مماثلة على الضرورة .

[لؤلؤ]

فاسداً غير من لا دين على الإطلاق . وإن نظرية وضع مستقبل هي حيان قرى ضروري للأخلاق حتى أنه لا ينبغي لنا أن ندها جانبا أو نهملها . إذ إذا كان للثوبة والعقوبة أثر عظيم جداً كما تلاحظ هذا كل يوم فكم من أثر عظيم يلوم توفقه من شوبة وعقوبة لامتناهية سرمدية ؟ (فلون) : إذا كانت الخرافة السوفية البتة في نفس المجتمع فكيف إذن يحصل التاريخ يصف حواقبها الويلة على الفنون العامة ؟ فالتفنن والحروب الأهلية والاضطرابات واندثار الحكومات والاستبداد والعبودية هذه هي العواقب الوخيمة التي تصحب دوماً غلبة هذه الخرافة الضمنية على أذهان الناس . وإذا ذكرت الروح الدينية في أية رواية تاريخية لا يفتنا أننا سنلقى فيما بعد تفاصيل عن الشقاء الذي يصحبها ، وليس ثم حقبة في الزمان يمكن أن تكون أسعد أو أكثر رفاهية من تلك الحقب التي لم يكن فيها اعتباراً ما لهذه الروح الدينية أولم يسمع عنها فيما .

(كلياتس) : سبب هذه الملاحظة واضح فبما الدين الخاصة هي أن ينسق الناس ويسم سلوكهم بالمعنى الإنساني ويضع روح الاعتدال والنظام والفاعلة . ولما كان عمله صامتا ويؤوى وحسب دوائع الأخلاق والمعادلة فهو في خطر من إغفاله والمخاطب بينه وبين هذه الدوائع الأخرى . وعند ما يتميز الدين ويؤثر على الناس كافة كيداً متفصل يبدل من مجاله الخاص ويندو وحسب غذاء الفتنة والطمع .

(فلون) : وهكذا شأن كل دين ما هذا الضرب القلبي

العقل منه . والقلم من استدلالك أيسر من القلم من وقائعه .
فالاستدلال ليس صحيحاً لأن الثبوتات والعقوبات المتناهية الموقوفة
لها من التفرد العظيم ما يلزم معه أن يكون للثبوتات
والعقوبات اللامتناهية السردية نفوذ أعظم . ولأن لا طمع إليك أن
تلاحظ ارتباطنا بالموضوعات الحاضرة والقائمة التي نجتنبها من ملاحظة
الأشياء الباقية في بعدها عنا وعدم يقينها . وعند ما يحل أسئلة اللاهوت
في خطابهم على سلوك الناس العام يعرضون دائماً هذا المبدأ على أنه
أقوى ما يتخيل من المبادئ ، وهو كذلك حقاً . ويصفون الجنس
البشرى - في الغالب - عاصياً لنفوذهم وغارداً إلى أعماق الخمول
وعدم المبالاة بمخالفهم الدينية . يد أن هؤلاء الأساتذة اللاهوتيين
أنفسهم عند ما يفسدون خصوصهم التاملين يفترضون لدوافع الدين من
القوة العظيمة ما يستحيل معه بقاء المجتمع المدني بدونها ولا يتصلون من
هذا التناقض الجلي . ويتقن من التجربة أن لأفعال قدر من الشرف
والجود الطبيعي أقرأ على سلوك الناس أشد من أثر الآراء الضخمة التي
تورس بها النظريات والمذاهب اللاهوتية . ثم زعة طبيعية في الإنسان
تؤثر فيه دون انقطاع وهي مائة دولاً في الذهن وتخرج بكل رأى وكل
اعتبار على حين أن الدوافع الدينية إذا أتبع لها أن تنشط قائماً تعمل
عليها في الثبات والظفرات حسب ، وقبلها يمكنها أن تصير أمراً اعتيادياً
في الذهن . يقول الفلاسفة إن قوة أعظم جاذبية على صغيرة بما لا يحد
إذا فست بقوة أفعال دفع ، يد أنه من البقي أن أفعال جاذبية تفوق

في النهاية دفعا عظيماً إذ ليس ثمة صدمات أو ضربات يمكن تكرارها
بمثل أطراد الجذب والجاذبية .

وثمة ميزة أخرى للزعة ، فهي تسحق من جانباها كل فطنة وعقوبة
في الذهن ، وعند ما تواجه المبادئ الدينية تنسج كل منبج وفي الإقلاص
منها ، وغالباً ما تصبح . ومن ذا يستطيع أن يكشف ما في قلب الإنسان
أو يفسر تلك التكتلات والأعداد التي يمرى الناس أنفسهم بها عند ما
يتبعون نزواتهم بما يتعارض مع واجبهم الديني ؟ هذا مفهوم فيما طيا
بين الناس جيماً وليس هناك من تفوق تفقه في الإنسان غير الخفي
لأنهم يعلمون أنه ما فيهم . يلو في دراسته للفلسفة شيئاً من الشكوك
التأملية المنصبة على الموضوعات اللاهوتية . وعند ما يتعلق الأمر برجل
يتخذ من الدين والعبادة حرفة رابضة أي أثر يكون له على العقلاء المتزين
الهم إلا أن يأخذوا حذرهم منه وإلا انطى عليهم غفه وخداعه ؟

يجب علينا أن ندخل في اعتبارنا أن الفلاسفة الذين يستثمرون
العقل والتفكير يقتل حاجتهم إلى مثل هذه الدوافع لتتبدد بقاء
الأخلاق ، وأن السوقة الذين قد يفكرون وحدهم إليها قد يقصرون
تصوراً تاماً عن دين خالص كذلك الذي يمثل الإله لا بوقته شيء . الهم
إلا فضيلة في سلوك البشر . ويظن بوجه عام أن التنازع على الآلهية
لا يخرج عن كونه موقفاً نافذة أو انجذاباً ذاهلاً أو تصديقاً مغرطاً .
وليس يعودنا أن نمود إلى الصور القديمة أو نهم في مجالات ضيقة
لنقف على أمثلة لهذا الانعطاف . وقد انهم بسببنا تلك النطاعة التي لم

تكن مبرورة في الحرافات المصرية والافريقية وهي الخوض في ألقاظ
صرعية ضد الأخلاق وتثليها على أنها خسران أكيد للطف الإلهي إذا
وقتنا بها أفعال نية أو اعتدنا عليها أدنى اعتياد .

يد أن الحرافة وإن كانت لا تحق موقف تمارض مباشر مع
الأخلاق إلا أن تشيخ الانتباه ونشأة ضرب جديد ناه من التقدير
وتورثنا الاحتمال بين المدح والقدح لابد وأن يكون لهذا أوخم المواقف
ولا بد وأن يوهن توهيناً تاماً ارتباط الناس بالدوافع الطبيعية للمدالة
والإنسانية .

وبالمثل لما لم يكن مثل هذا المبدأ للفعل أحد الدوافع المألوفة في
السلوك البشري فهو يفعل فعله في المزاج من حين إلى آخر ولا مفر من
إثارته بمجهود متواصلة كي يحل المتعصب الذي يرضى كل الرضى من
سلوكه ويحقق واجبه في العبادة . وكثير من الرياضات الدينية يقبل عليه
بحمارة عاتلة على حين يشعر القلب في الوقت حينه بالبرودة والخمول ،
وتقتد بالتدريج عادة التفاني ويندو القدر والزيغ المبدأ السائد . ومن هنا
سبب تلك الملاحظة السريعة وهي أن أقصى تعصب في الدين وأعمق
رياء - وهما أقصى ما يكونان تافهاً - يتحدان في أغلب الأحيان بل
ويتحدان اتحاداً شاملاً في خلق الفرد الواحد .

ومن السيلر تخيل الآثار السيئة لهذه المبادئ حتى في الحياة
العامة . ولكن حيناً أخذت شواغل الدين على الناس أمرهم نجد

أن ليس في وسع الأخلاق أن تبلغ من القوة مبلغاً كافياً لتكبح جماح المتعصب
المتحمس . وإن قداسة القضية لتبارك كل شرعة ينفع بها في خدمتها .

وللى الانتباه الثابت وحده إلى منفعة بالغة الأهمية وهي الخلاص
السردى ، إلى هذا الانتباه وحده يرجع نخود عواطف الجود ونشأة
أمانة مترتبة ضيقة الألف . وعند ما يتبع مزاج كذا يغلت في يسر من
جميع التعاليم العامة للإحسان والجود .

وعلى هذا لا يكون لدوافع الحرافة السوقة نفوذ عظيم على السلوك
العالم ، وليس عليها في الحالات التي تسود فيها مناسبات للأخلاق .

أمة قاعدة في السياسة أيقن وأبد عن الخطأ من تلك التي تقول إن
سلطان القس ينبغي أن يحد في دائرة ضيقة جداً وأنه ينبغي على
الحاكم المدني أن يحفظ شعاره وحرابه دائماً من هذه الأبدى الخطرة ؟

ولكن إذا كانت روح الدين الشعبي بالغة التفع للجمع فينبغي
لقاعدة أخرى أن تسود . وإن عدداً أعظم من القس وسلطاناً وثروة
أضخم لهم لتبقى دائماً الروح الدينية . ومع أن القس هداية هذه الروح
فلم لا تتوقع طهارة أرفع للحياة واعتدالاً وجوداً أعظم من أشخاص
قد توفروا على الدين وبدأون على طبعه في نفوس الآخرين ويستم
عليهم أن يشرروا بأعظم نصيب منه ؟ لم إذن كان غاية ما يبيع الحاكم
القيام به في الواقع صدد الأديان الضمنية هو أن يأمن جانباها
ويجتنب عواطفها الويلة في المجتمع قدر المستطاع ؟ وكل حيلة يتتال بها

لتحقيق هذا الفرض تكثفت الشكوك . فإذا أباح لأفراد شعبه ديناً واحداً لحب لنعمته عليه أن يمتنع - علماً منه في سكونه لا يمتنع منها - بكل اعتبار الحرية الشعبية والمسلم والمقل والصناعة بل وكل اعتبار لاستقلاله الخاص . وإذا جعل الأفضلية لشعب متعددة - وهذا هو المبدأ الأقرب إلى الحكمة - لوجب عليه أن يحفظ بسوية فلسفية شديدة بينها جميعاً ، وأن يكبح بعناية دعاوى الشيعة الغالبة ، وإلا لما وسعه أن يتوقع شيئاً اللهم إلا مساجلات ومعارك وشقاقات واضطرابات وقتاً أهلية لا نهاية لها .

ليس للدين الحق - كما أرى - مثل هذه المواقف الويلية ، بل يجب علينا أن نعالج الدين على نحو ما نجد بوجه عام في الدنيا وليس لدى ما أعله بمقيدة المؤمنين النظرية وهي - لما كانت ضرباً من الفلسفة - يلزم أن تشارك في التأثير النافع لهذا المبدأ ، ويلزم في الوقت نفسه أن تخضع للشفقة عليها أى تنحصر دائماً في عدد ضئيل جداً من الأشخاص .

إن القسم المطلوب في جميع دور القضاء يد أن موطن التساؤل هو ما إذا كانت سلطته ناجمة عن دين شعبي ما . إن القبول الرئيسية المفروضة على الجنس البشري هي وقار الظرف وأهميته ومراعاة السمعة والتفكير في منافع المجتمع المسماة - القسم السياسي - ليس له إلا اعتبار ضئيل جداً حتى عند البعض الذي يدعى لنفسه مبادئ في الشرف

بالأمور بعيداً ! لا تدع حماسك ضد الدين الباطل تهدم توفيقك للدين الحق . لا تفرط في هذا المبدأ وهو سلواتنا الوحيدة الهامة في هذه الحياة وسندنا الأساسي وسط انقضاضات الخط الماكر . وأحب تفكير يمكن للخيال البشري أن يوسى به هو الاعتقاد الخالص الذي يمثلنا على أننا العمل البشري لموجود كامل في خيره وحسنه وقوته ، خلقنا السادة ، وهو إذ غرس فينا رغبات للتعبير لا تعد بسيط وجودنا إلى السردية ويستقل بنا إلى تنوع لا نهاية له من المشاهد لأرضنا تلك الرغبات ويحمل نعيمنا مستكلاً دائماً . ثم إن أسعد نصيب يمكننا أن نتخذه من هذا الموجود - إذا أحييت المقارنة - هو أننا في كنف رعايته وحمايته .

(فيلون) : هذه المظاهر البالغة في إغرائها واستئثارها وهي في نظر الفيلسوف الحق تريد عن كونها مظاهر ولكن يحدث هنا كما حدث في الحالة السابقة أن المظاهر في نظر أغلب الناس غشاعة وأن أهوال الدين تفوق بوجه عام نعمة .

ومن المسلم به أن الناس لا يلجأون قط إلى العبادة بنفس الاستعداد الذي يلجأون به إليها عندما يكرههم الحزن أو يذمهم السقم . أليس هذا دليلاً على أن الروح الدينية ليست وثيقة الارتباط بالهجة شأنها مع الأسى ؟

(كلياش) : ولكن الناس حين يحزنون يحدون صراخهم في الدين .

والدين . وإن جزم جماعة (كريكس)^(١) ليستوى عندنا بحق مع قسم أى شخص آخر . وأنا أعلم أن (بوليبيوس)^(٢) يبرو حجة الإيمان إلى غلبة الفلسفة الأبيقورية ولكنني أعلم أيضاً أن الإيمان الوثائق كان له من السمعة السيئة في الزمن القديم ما يشبهه في إرلده في الزمن الحديث وإن كنا لا نستطيع أن نعلل هذه الملاحظات بالسبب نفسه . هذا إلى أن الإيمان الأبيقري كان مسبقاً قبل ظهور الفلسفة الأبيقورية . وفي فترة ساذكرها لك فيما (إرويدس)^(٣) ، وطنه هجاء ملحوظاً بصدد هذه الملاينة .

(كلياش) : خذ حذرك يا (فيلون) خذ حذرك ولا تدفع

- (١) كريكس : *Quaker* : فرقة دينية تأسست في القرن ١٧ ، وانفردت خاصة في إنجلترا والولايات المتحدة وهي فرع من البوريتان .
- (٢) بوليبيوس : *Polybius* : مؤرخ يوناني ولد بين ٢١٢ - ٢٠٥ ق م . له كتاب تاريخ عام لصرماء وهو نموذج للسكنا بالوجزة والاعتماد بما هو جوهري . لم يبق منه إلا لغة أسفار من أهم ما بقي من التراث القديم . توفي - إلى ١٢٥ ق م .
- (٣) ويطاق عليه *Panic Belief* : إشارة إلى الحياة التي يمس بها الرومان أهل قرطاجنة .
- (٤) إرويدس : *Eurpides* : أكثر الشعراء اليونان الذين الثلاثة الكبار . (إسكيلوس - سينيوكليس - إرويدس) . و *Iphigelia in Tauride* مسرحية ترايكية ، وقد كتب جوبه مسرحية بهذا الاسم كذلك تألف على أسطورة يونانية . أفيجينا بنت أجاممنون أسعد أبطال اليونان أراد أن يقدمها قرباناً للآلهة ديانا ، فأخذتها وجبتها كاهنة في معبدها . (المترجم) .

(فيلون) : أحياناً ، ولكن من الطبيعي أن نتخيل أنهم يكونون فكرة عن تلك الموجودات المجهولة تتاسب مزاجهم الراهن المظلم الحزين عندما يأخذون أنفسهم بالتأمل فيها . وبالتالي فمن بعد الصور الموهولة تسود في كل الأديان ، ونحن أنفسنا - بعد أن نستندم أشرف المبادئ في أوصافنا لله - نتع في تناقض صارخ حين نقرر أن عدد الملموعين يفوق بما لا يحصى عدد الصفوة .

سأجسر فأقرر أنه لم يكن هناك قط دين قد مثل حالة التقوس المتوفرة على الدين تمثيلاً يجعل هذه الحالة مرغوبة للجنس البشري . هذه الفناذخ الواجبة للدين هي ثمرة الفلسفة الخالصة . إذاً كان الموت جاثماً بين الحاضر والمستقبل فإن تلك الحادثة البالغة في تأثيرها في الطبيعة حتى أنها لاغر من أن تفصل بالفضلة كل المحاولات التي تقع ورامها وتوحى للجنس البشري عامة فكرة شياطين وتيارات من الناز والكبريت .

والحق إن الخوف والرجاء يدخلان معاً في الدين ، إذ أن هاتين العاطفتين تهيجان معاً في ذهن البشري في أوقات مختلفة ولكنها تكون ضرباً من الألوهية يتسق معها . ولكن الإنسان عندما يكون منشغراً بصلح العمل أو الرفقة أو الترفيه من أي لون وهو يستغرق بالطبع فيها ولا يفكر في الدين . وعندما يكون مكتئباً شبيهاً لا يكون لديه ما يفعله اللهم إلا أن يتأمل في أهوال الدنيا الحقبة ويدفع بنفسه إلى أغوار الحزن . وقد يحدث أيضاً - بعد أن يكون قد ثبت على هذا النحو

المعتقدات الدينية تثبيتاً عميقاً في تفكيره وخياله - تغير في الصحة أو الملابس بعيداً له مزاجه الحسن ويبحث مشاهد بهيجة في المستقبل تجعله يمدد إلى الطرف الآخر طرف البهجة والنشوة . بيد أننا يلزم مع هذا أن نقرر أنه كما أن المتحول هو المبدأ الأول في الدين فهو العاطفة التي تعود دائماً فيه ولا تتيح إلا فترات قصارا وحسب من اللذة .

هذا إلى أن هذه التوبات من الابتهاج الفائق الحاسي إذ تهك الأرواح تهجد دائماً السيل لتوبات معادلة من الهول والتثبيط الخرافي، وليس بمهمة حالة للذهن تبلغ من السعادة مبلغ الحالة المادية المتعاقبة . ولكن يستحيل دعم هذه الحالة حين يذكر الإنسان أنه مقيم في هذه الظلة وهذا التشكك العميق بين سرمد من السعادة وسرمد من الشقاء . ولا عجب أن مثل هذا الرأي يقوض نظام الذهن ويؤثر في أشد اختلاط .

وذلك الرأي وإن كان قلباً يثبت في عمله بحيث يسهل تقوذه على جميع الأفعال ، خلق أن يفتح ثغرة ملحوظة في المزاج ويولد الحزن والكتابة التي تلاحق في جميع الناس الوديع .

وما ينافي الذوق السليم أن نبلر توجسعات وأهوالاً استناداً إلى رأي ما أياً كان ، أو أن نتخيل أننا نركب خطراً ما حين نستخدم عقلاً استناداً إلى حقيقة . إن شعوراً كهذا يتطوى على بطلان وتناقض . من البطلان أن نعتقد أن لله عواطف بشرية وواحدة من أدنى

أو هل الأقل لا تعريف لها - وهي : ان علة أو عال النظام في العالم تحمل على الأرجح عائلة بعيدة المدى للعقل البشري . وإذا لم تقبل هذه القضية بنسبها وتوحيها أو تفصيراً أكثر تخصصاً ، إذا لم تعدنا باستدلال يؤثر في الحياة البشرية أو أمكنها أن تكون مصدراً لأي فعل أو سبباً للكف عن فعل ، وإذا كان التثليل على نفسه لا يمكنه أن يعضى إلى ما هو أبعد الذكاء البشري ولا يمكن أن يتقل في أي مظهر من مظاهر الرجحان إلى كليات الذهن البشري . إذا كان الحال كذلك في الواقع فما الذي في وسع رجل الدين الباحث التأمّل أن يفعل أكثر من أن يندى موافقة بسيطة فلسفية على القضية كلها عرضاً له . ويستند في أن الحجج التي تقوم عليها تفوق الاعتراضات التي تصدها أحقا إن ثمة دهشة تنبع بالطبع عن عظمة الموضوع ، وثمة كتابة عن غرضه ، وثمة إدراك العقل البشري إذ لا يستطيع أن يقدم حلاً أكثر استيفاء في مسألة خارقة بالغة في روعتها . ولكن صدقني يا (كلياتش) إن أبلغ شعور طبيعي يستثمره هذه المناسبة ذهن معد لإعداداً طبيعياً هو رغبة مشوقة وتوقع في أن السماوات يسرها إذ تبدد - تبديداً طفيفاً على الأقل - هذا الجهل العميق بأن تمد البشر برؤى خاص وتقوم بكشف في الطبيعة وفي صفات وأعمال الموضوع الإلهي لإيماننا . إن شخصاً قد ركز في حصره بنقائص العقل البشري لطيف إلى الحقيقة المكتشفة بأعظم شغف ، بينما يقرأ أي للدعماطيق المخترع أنه يستطيع أن يفيد مذهبا تاماً اللاهوت يتسوق في الفلسفة وحدها فيحترق كل هون

المواطف البشرية وهي الاشتباه الذي لا يفرق لثاني الاستحسان . ومن التناقض أن نعتقد أنه مادام لله هذه العاطفة البشرية فليس لديه عواطف أخرى أيضاً ويوجد خاص لإغفال لأراء المخفوقات الدنيا .

يقول (سنتا) : أن تعرف الله هو أن تمده ، وكل عبادة أخرى باطلة خرافية لا تقوى فيها ، فهي تهبط به إلى حالة البشر الدنيا هؤلاء الذين ينتشون بالنوئل والاستحسان والهدايا والنكث . وإن عدم التقوى هذه هي أقل ما تدان به الخرافة . والشائع أنها تهبط بالله هو طأ دائماً إلى حالة البشر وتمثله شيطاناً متقلب الأهواء يصطلع قوته بلا عقل وفي غير إنسانية . وإذا كان ذلك الموجود الإلهي مرضاً لا ذي دلائل عبادة الفانين وطيشهم وهم عمله البشري ، سيضحي الشريرين تدور أغلب الخرافات الشعبية ، وإن يستأهل أحد من الجنس البشري عطشه اللهم إلا أنه من المؤمنين المتكلمين الذين ينعون أو بالأحرى يحاولون أن يصيروا تصورات مناسبة عن كالات الله . وكذلك الأشخاص الوجدون الذين سيبيع عطفه وإيثاره هم الشكك الفلاسفة وهم أشبه تكاد تكون نادرة ، وهم - عن عدم ثقة طبيعية بقدرتهم - يقولون أو يحاولون أن يعطوا كل حكم بهذا هذه الذوات الدقيقة الخارقة .

وإذا آل اللاهوت الطبيعي يأكله - كما يبدو أن البعض يأخذ بهذا - إلى نسبة واحدة بسيطة - وإن يكن فيها شيء من العموض

آخر . وأن أول وأعظم خطوة جوهرية عند رجل الآداب في طريقه إلى أن يفكر مسيحياً ، مؤمناً مسيحياً هي أن يكون شاكاً فلسفياً . هذه قضية أنه (باميلوس) قاصداً - إلى تجديدها وأمل أن (كلياتش) سيفكر في تدخل في تربية تليده وتثقيفه .

« لم يمس (كلياتش) و (فلور) في هذا الحوار إلى أبعد من هذا ، وإذا لم يؤثر في غيره - تلك اليوم - بأنها أعظم من تلك الاستدلالات التي لا تعرف بأنها بهد مساجتي لها جميعاً مهابة جادة أظن أن مبادئ (فلور) أقرب إلى الرجحان من مبادئ (ميان) ولكن مبادئ (كلياتش) أقرب إلى الحقيقة »

وأنتهى ،

فهرس

الصفحة	
١ - ٥	تصدير الأستاذ الدكتور عثمان أمين
٣	مقدمة المترجم
١٠	خطاب من (ألفيلوس) إلى (هرثيوس)
١٤	الفصل الأول
٣١	الفصل الثاني
٤٩	الفصل الثالث
٥٧	الفصل الرابع
٦٦	الفصل الخامس
٧٥	الفصل السادس
٨٣	الفصل السابع
٩٢	الفصل الثامن
١٠٠	الفصل التاسع
١٠٧	الفصل العاشر
١٢٢	الفصل الحادي عشر
١٤٠	الفصل الثاني عشر

تصويب

الصفحة	السطر	التصويب	الخطأ
١٠	٨	كاتب	كاشف
١٧	١	مبهمة	مهمة
٢١	٨	أنه يتعتم	أن يتعتم
٢٥	١٧	ملكك	ملك
٢٩	١٧	نفس	نفس
٣٠	١٧	الاتجاه إلى فن	الاتجاه فن
٣١	٣	تسلم	تلم
٤٠	٢	معلومات	معلومات
٥١	١٦	الصراخ	الصراخ

وله سقط سبواً هامش من ١١٢ :-
(١) يثن ٢ - القردوس المفرد .

(المؤلف)